
بيت الحكمة
جزيرةُ الوَهمِ
إملي نصر الله
hachette
أنطوان

جزيرةُ الوَهْمِ

بيسان الحكمة
بيروت

جزيرةُ الوَهمِ

إملي نصرالله

الضّبط اللّغويّ والاستثمار التّربويّ: خليل السّيقلي
الغلاف، التّصميم والرّسم: ساندرا غصن
الدّاخل، الرّسوم: جوزف دكّاش

هاشيت أنطوان
تربية

جزيرةُ الوَهم

متابعة النَّشر: نيكول عقيقي المصوَّر

التَّصميم المنهجيّ: Christie's *for printing and advertising*

ر.د.م.ك. 2 – 372 – 73 – 9953 – 978

النَّاشر: هاشيت أنطوان Hachette Antoine

الطَّبعة الأولى 2010

ص.ب. 0656-11، رياض الصّلح

1107 2050 بيروت، لبنان

العنوان التّجاريّ: سنّ الفيل، حرج تابت، بناية فورست

هاتف: 483513 – 1 – 961

بريد إلكترونيّ: info@hachette-antoine.com

قصّة

جزيرةُ الوَهْمِ

لا أَدري لماذا تَخطُرُ ببالي هَذه الحادثةُ بالذّاتِ... فقَدْ مَضتْ سنواتٌ، وهي **قابعةٌ** في رُكنٍ مِنَ الذّاكرةِ. وحينَ أُحاوِلُ نَبشَها الآنَ أُحِسُّني أَغرقُ في بحرٍ مِنَ الأَوهامِ والأَساطيرِ.

أَجلْ، كانَتِ الخُرافةُ تَلُفُّ طُفولتي، تُطوِّقُ وجودي **عَلى رُغمي**، وتَحمِلُني إِلى أجواءٍ بعيدةٍ بعيدةٍ، **فأَهيمُ** معَها، أُجذِّفُ في محيطاتٍ لا تُحَدُّ، أو أَطيرُ في سماواتٍ شاهقةٍ... وفي أَكثرِ الأَوقاتِ تَهيجُ الأَمواجُ

قابعةٌ: مُتواريةٌ، مُختفيةٌ.

عَلى رُغمي: عَلى كُرْهٍ منّي، مغصوباً.

أَهيمُ: أَذهَبُ لا أدري أينَ أَتوجَّهُ، أَشرُدُ.

في صَدري، تَرفعُني، تَشُدُّني، تَعصِرُني، فأفرَحُ وأَبكي وأَحلُمُ وأَتعذّبُ، وحينَ أَمُدُّ رأسي باحثةً عَنِ السّؤالِ أُصادِمُ جداراً مِنَ الصّمتِ.

وها إنّي أعودُ بالذّاكرةِ إلى تلكَ اللّيلةِ.

كانَتْ قاسيةَ البردِ. وجَمعَتْنا أُمّي حَولَها كما تَجمعُ الدّجاجةُ فِراخَها. كُنْتُ وإِخوَتي الصِّغارَ نَتكوّمُ حَولَ المَوقِدِ، نَتسلّى بِأَلْسِنةِ اللّهيبِ تَتقلّبُ فيها ألوانٌ **قُزَحيّةٌ**... أَو نَتجمّعُ بعضُنا فَوقَ بعضٍ كُلَّما نَفخَتِ العاصفةُ مِنَ المَدخنةِ أَو هَوَّلَتْ عَلَيْنا مِن **خَصاصِ** النّوافذِ. سَرى الدِّفْءُ في مَفاصلي، فَحملَني خفيفةً إلى الفراشِ، أَلتصِقُ بأخي الصّغيرِ أَضُمُّه إِليّ مِثلَما في كلِّ ليلةٍ، لنَغفوَ ونَتذوّقَ طعمَ الدِّفْءِ والأمانِ. وبَقيَتْ أُمّي تُساهِرُ أبي وهو مرتاحٌ فَوقَ طَرّاحتِهِ **الوَثيرةِ**، يَلُفُّ

قُزحيّةٌ: تُشبِهُ ألوانَ قوسِ قُزَحٍ.
الخَصاصُ: الخَرقُ أو الفُتحةُ.
الوَثيرةِ: الوطيئةِ اللّيِّنةِ.

جسمَهُ بعَباءةٍ واسعةٍ كُنّا نُشاركُه في نِعَمِها في **أُوَيقاتِ** الرّضى.

كانَ النُّعاسُ قَد بَدأَ يَستولي عَليَّ حينَ سَمعْتُ طَرقاً مُستعجِلاً عَلى البابِ تَلاهُ صَوتُ أبي: «تَفضَّلوا»؛ ودَخلَ جارُنا بو أسعدَ تُرافقُه تَذمُّراتُه مِنَ العاصفةِ الملعونةِ... خَلعَ حذاءَهُ عندَ العتَبةِ، واقتربَ مِنَ النّارِ فاتَّخذَ له مَجلِساً مُريحاً قبلَ أَن يَبدأَ الحديثَ:

- شو سِهرانينْ وحدْكُم اللّيلِهْ.

وكانَ يَعلمُ جيّداً أَنَّ إِنساناً لا يُغادِرُ مَوقِدَهُ في ذَلكَ **الزّمهريرِ**... وتابعَ:

- والأولادْ ناموا؟

ردَّتْ أُمّي بإيماءةٍ مِن رأسِها استطَعْتُ أن أَلتقِطَها بطَرَفِ عَيني.

ولَمْ أَجرُؤْ عَلى رَفعِ رأسي، فدَفنْتُه تحتَ اللِّحافِ بطريقةٍ تَسمحُ لي أَن أَرى مِنَ **الفَجْوةِ** الصّغيرةِ كلَّ ما

الأُويقاتُ: الأوقاتُ القليلةُ أو القصيرةُ.

الزّمهريرُ: شدّةُ البَردِ.

الفَجوةُ: الفُتحةُ.

يَدورُ حَولَ المَوقِدِ، خصوصاً أَنَّ الحديثَ انقَلَبَ إلى هَمسٍ يَكادُ لا يَصِلُني... وكانَتْ بِدايتُه عاديّةً، تَدورُ حَولَ المَوسِمِ وتأخُّرِ الفلّاحينَ في حَرثِ الحقولِ، فالطّبيعةُ لَم تَفسَحِ المَجالَ لإنهاءِ الزّرعِ. وفي انتظارِ الصَّحوِ يَقبَعُ الفلّاحونَ في بيوتِهِمْ، يَقضونَ النّهارَ في تَبادُلِ الزّياراتِ وشُربِ القهوةِ، واللّيلُ يَصرِفونَهُ في سَهَراتِ **الأُنسِ**، وضُروبِ السّلوى **السّاذَجَةِ**، وسَردِ الأَساطيرِ والحكاياتِ.

وفي تلكَ اللَّيالي تَنقلِبُ الأَساطيرُ إلى أَحداثٍ واقعيّةٍ تُغذّي حياتَهُمْ، وتَقطَعُ حَبلَ الضّجَرِ.

سَحبَ بو أَسعدَ نفَساً مِن سيجارةٍ لَفٍّ، ثُمّ تَنَحنَحَ وهَمسَ:

ـ يا أخي سُلَيمانَ، ثِقتي بكَ كبيرةٌ، وبعدَ طولِ تَفكيرٍ لَم أَجِدْ مَن يُشاركُني في هَذا السِّرِّ سِواكَ... وأُختي جميلةُ لَيسَتْ غريبةً.

الأُنسُ: ضِدُّ الوَحشةِ، التّسليةُ.

السّاذجةُ: البسيطةُ السّهلةُ.

- خيرٌ إنْ شاءَ اللهُ يا بو أسعدَ. ثِقتُكَ مَطرَحها.

- مَضى عَنيّ يومانِ وأنا أُقلِّبُ الأمرَ على عِدّةِ وُجوهٍ، فَلَمْ أَجِدْ بُدّاً مِنَ اللُّجوءِ إلى مَعونتِكَ.

- أهلاً بكَ، الغالي يَرخُصُ لكَ.

- قبلَ أيّامٍ أبصرْتُ جُسماً غريباً... رجلٌ مِن غَيرِ هَذهِ الدُّنيا، يَرتدي ثياباً برّاقةً... كُنْتُ نائماً تحتَ الخرّوبةِ في **الحاكورةِ**، واقترَبَ مِنّي ثُمَّ رَبَّتَ كَتِفي:

- قُم يا بو أسعدَ...

رَفعْتُ إلَيْهِ عَينَيْنِ **ذاهلَتَيْنِ**، وتابعَ هو كلامَهُ:

- سَوفَ تُصبِحُ مِن أكبرِ أغنياءِ الأرضِ. تَرى الصّخرةَ الكبيرةَ بِجانبِ العُلّيقةِ؟ احفُرْ هُناكَ، وسَوفَ تَجِدُ كنزاً.

تَمنّيْتُ أن أَطرحَ عَلَيْهِ أسئلةً كثيرةً، لَكِنّهُ لَم يَترُكْ لي المَجالَ. اختفى فَوقَ سحابةِ نورٍ. وحينَ استيقَظْتُ

الحاكورةُ: قطعةٌ مِنَ الأرضِ قريبةٌ مِن المنزلِ، تُزرَعُ فيها الأشجارُ والخُضَرُ.

داهلتَيْنِ: شاردتَيْنِ تائهتَيْنِ.



في الصّباحِ، كانَ الحُلمُ يُغلّفُ حواسّي، وبَقيَ **الطّيفُ** الغريبُ مُنتصِباً في عَينيَّ. حاوَلْتُ أن أُبعِدَهُ وأَضحكَ مِن هَذا **السّرابِ** الّذي امتدَّ فجأةً فطوّقَ حياتي... ولَمْ أُفلِحْ... ورَأيْتُني أَسيرُ بِلا وَعيٍ إِلى الحاكورةِ، غَيرَ مُبالٍ بالمطرِ والصّقيعِ والوحولِ... اقتربْتُ مِنَ الصّخرةِ ورُحتُ أَلُفُّ حَولَها. والحُلمُ اللّذيذُ يُدغدِغُ مَفاصلي، ويُنسيني قَدَميَّ الغارقتَيْنِ في الوحلِ. ولَمّا عُدْتُ إِلى البيتِ تَلقَّتْني أمُّ أسعدَ بالصُّراخِ واللَّومِ. ولَمْ أَجرؤْ على إِخبارِها بما جَرى. وانقضى النّهارُ عَلى صَمتي وعَرَفْتُ ليلةً لَم أَذُقْ طعمَها مِن قَبلُ. كُنْتُ أَتقلّبُ عَلى فراشٍ مِن إِبَرٍ، ولُمْتُ نَفسي عَلى عَجزِها... وأخيراً غَفَوْتُ... وعادَ الإنسانُ الغريبُ يَطرُقُ بابي في هَذهِ المرّةِ... كَيفَ دَخلَ؟ لا أَذكرُ. أَبصرْتُه واقفاً في صَدرِ

الطَّيفُ: الخَيالُ الطّائفُ في المَنام

السّرابُ: ما يُشاهدُ عند اشتداد الحرّ كأنّه ماءٌ، ويُضرَبُ به المثلُ في كُلِّ ما يَخدَعُ.

الدّارِ، يَبتسمُ لي ويَدُه تُشيرُ إلى مكانِ الكنزِ. فاهَ بعِبارةٍ واحدةٍ:

ـ احفُرْ حَولَ الصّخرةِ.

«استيقَظْتُ في الصّباحِ يُبلِّلُني عرَقٌ باردٌ، وانقلَبَ كِياني. لَم أعُدْ أستطيعُ النّومَ أوِ العيشَ. وانطَلَقْتُ إلى الحاكورةِ **كالمأخوذِ**... ودُرْتُ مرّاتٍ حَولَ الصّخرةِ، وصَوتُ الغريبِ في أُذني:

ـ الكَنزُ... الكَنزُ...

«وانتفَخَ السّرُّ في صَدري كالوَرَمِ، فلَمْ أجِدْ بُدّاً مِن إطلاعِ أحدِ **الخُلَصاءِ**... وأنتَ جاري وأخي، فبِماذا تَنصحُني؟».

كانَ أبي يُصغي إلى الجارِ باهتمامٍ، تُشارِكُه فيه أمّي بصَمتٍ... وساوَرَني شعورُ خوفٍ وفرَحٍ تَمنَّيْتُ لَو كانَ هُناكَ مَن يُشارِكُني فيهِ... وكانَ مِنَ المستحيلِ أن أُحدِّثَ والدي بما سَمعْتُ، فاحتفَظْتُ بالسّرِّ أتلذّذُ به بَيني وبَينَ نَفسي.

المأخوذُ: المحدوبُ، المسحورُ.
الخُلصاءُ: مفردُها الخِلْصُ وهو الصّديقُ المُخلِصُ.

اقترحَ أبي عَلى الجارِ أَن يَبدأَ الحَفرَ توّاً... واعترَضَ بو أسعدَ:

ـ والنّاسْ يا خَيّي... النّاسْ شو بِتقْولْ؟

ـ احفُرْ في اللّيلِ.

ـ وأنتَ، هَل تُساعدُني؟

دَعوةٌ مِثلُ هَذهِ كانَ يَستحيلُ عَلى أبي أَن يَرفُضَها. فهو يَعشَقُ المغامراتِ، وتُذهِلُه الحكاياتُ الغريبةُ، يَقِفُ إزاءَها كالطِّفلِ المَشدوهِ. ولَمْ يَكُنْ غريباً أَن يَقبلَ عَرضَ الجارِ فيَقترحَ أَن يَبدأَ الحَفرَ في اللّيلةِ التّاليةِ، وإذا تَطفَّلَ النّاسُ بالسّؤالِ عَمّا يَجري، يُخبِرُهُم بو أسعدَ أَنَّهُ يَبحثُ عَنِ الماءِ.

ما كادَ الظّلامُ يَحِلُّ عَلى القريةِ، حتّى كانَ بو أسعدَ يَقِفُ بالبابِ ومعَهُ آلاتُ الحَفرِ، وقَدِ استعَدَّ لِلِقاءِ العاصفةِ... وقابَلَهُ أبي بمِثلِ استعدادِهِ، ووَقفَتْ أُمّي

توّاً: حالاً، في الحالِ، بِلا تأخُّرٍ.
المَشدوهُ: المدهوشُ، المُتعجّبُ.
تطفّلَ: تدخّلَ في ما لا يعنيه.



تُشيّعُهما بنظْراتِ الرّضى، ثُمّ عادَتْ إلَيْنا وقَدْ عَلَتْ وَجهَها مَسحةُ اكتفاءٍ أَخْفَتْها خَلْفَ قِناعٍ مِن **جِدٍّ** **تَصَنَّعُه**.

وكُنْتُ، في سِرّي، أُشارِكُ العائلةَ في الفَرْحةِ الّتي قَلَبَتْ حياتَها، وبَدَّلَتْ نِظامَ العملِ: أبي يَشتغلُ في اللّيلِ ويَنامُ مُعظمَ ساعاتِ النّهارِ؛ وأُهمِلَتِ الحقولُ، ولَمْ يَعُدْ بو أسعدَ يَحلُمُ بمَوسِمِ الحِصادِ.

كَرَّتِ الأيّامُ والحُلمُ يَتغذّى في صَدري. وصِرْتُ أَطيرُ فوقَ أَجنحتِهِ إلى جَنّاتٍ غَنّاءَ تختفُ كلَّ الاختلافِ عَن حُقولِنا البائرةِ... فأَحلُمُ بقُصورٍ لَيسَ لها شبيهٌ إلّا في الكُتبِ المصوّرةِ وحكاياتِ جَدَّتي... وأُمّي تَحسُبُ لِغدٍ! مَن يَدري؟ فقَدْ يَرضى اللّهُ إلى حدٍّ يُريحُ الزَّوجَ مِن **كَدْحِهِ**، ويَجعلُها مَلِكةً في قصرٍ تَحُفُّ

تُشيِّعُهما: تُرافقُهما، تُواكِبُهما.
الجِدُّ: ضِدُّ الهزلِ.
تَصنَّعَ: تَكلَّفَ الظُّهورَ، أظهرَ عَن نَفسِهِ ما ليسَ فيها.
الكدحُ: إجهادُ النّفسِ في العملِ.

به الحدائقُ **الغَنّاءُ**، فلا تَعودُ أَصابِعُها تَتشقَّقُ مِنَ العملِ المُتواصلِ: غَسلٍ، طَبخٍ، خَبزٍ.

وتَجنَّحَ الحُلمُ فأَصبحَ حمامةً بيضاءَ تَرِفُّ فَوقَ دارِنا، تَجمعُنا كلَّ ليلةٍ تحتَ خَيمةِ السِّرِّ الكبيرِ.

بعدَ مُرورِ أيّامٍ على بدءِ العملِ، طالَعَ الرَّجلَيْنِ بَصيصُ أَملٍ... كانَتْ أُمّي والجارةُ قُربَ المَوقِدِ تَنتظرانِ، على عادتِهِما، حينَ فُتِحَ البابُ بِعُنفِ العاصفةِ ودَخلَ بو أسعدَ يَتبعُه أبي، ثُمَّ أَحكَما إِغلاقَ البابِ، وأَطلَقا صَيحةَ فرحٍ:

- إِجتْ واللهِ جابْها!

وقَفزَتْ أمُّ أسعدَ كالقِطّةِ فتَناولَتْ مِن يدِ زَوجِها حَجراً كانَ قد لَفَّهُ بِمنديلِ **الدّيما** الأزرقِ: إِنَّهُ طَلائعُ الكنزِ!

قَرَّبَتِ الحَجرَ مِنَ النّارِ فانبعثَ مِنْه بريقٌ **ماسِيٌّ** يَخْطَفُ الأبصارَ:

الغنّاء: الكثيرةُ الشَّجرِ والعُشبِ.

الدّيما: الحريرُ.

ماسِيٌّ: منسوبٌ إلى الماس.

ـ يا أمّ أسعدَ رَحْ تِسْعَدي بآخِرْ زَمانِكْ... هَذا البريقُ سوفَ يَتحوَّلُ إلى أَساورَ تُزيِّنُ مِعصَمَيْكِ، وأقراطٍ لأُذنَيْكِ، وعقودٍ تَلُفُّ **جيدك**.. اللّهُ كريمٌ يا مَرَهْ!

ظَلَّ الحَجرُ دقائقَ يَتقلَّبُ بينَ الأَيدي **الشّغوفةِ**، يَتحمَّلُ ضَغطَها أو يَسمعُ خفقانَ القلوبِ... ثُمَّ اختَطفَهُ بو أسعدَ وأَحكَمَ لفَّهُ بِمنديلِهِ قبلَ أنْ يُعيدَهُ إلى جَيبِهِ.

اتّفقَتِ الآراءُ على أَن يَهبِطَ في اليومِ التّالي إلى العاصمةِ ليَعرِضَ الكنزَ عَلى أَحدِ **الصّاغةِ**... **ليَتيقَّنَ** أصالَتَهُ... وفي هَذهِ المرّةِ لَم يُفكِّرْ كَيفَ يُدبِّرُ المالَ للنُّزولِ إلى «بيروتَ»، فقَدِ استَحلَّ اللّيراتِ القيمةَ الّتي **ادَّخرَتْها** زَوجتُه... سَحبَها مِن غيرِ أَن يَرِفَّ له جَفنٌ. وفي الصّباحِ الباكرِ انطَلقَ في أوّلِ عَزبةٍ... ولَمّا عادَ

الجيدُ: العُنقُ.
الشّغوفةُ: الشّديدةُ الحُبِّ والتّعلُّقِ.
الصّاغةُ: مفردُها الصّائغُ وهو من حرفتُه معالجةُ الذّهبِ والفضّةِ وصُنعُ الحُليِّ.
تيقَّنَ الأمرَ: عَلِمَهُ وتحقّقَهُ.
ادَّخرَ أو اذّخرَ الشّيءَ: خبّأَهُ لوقتِ الحاجةِ.

مساءَ ذَلكَ النّهارِ كانَتْ حَماستُه قد تَخَلَّتْ عَنْهُ، مُخَلِّفَةً مكانَها خَيبةً مريرةً. لَم يَكُنِ الحَجرُ ذا قيمةٍ مُطلَقاً. فهو مِن نوعِ الحجارةِ الزُّجاجيّةِ الّتي يُصادِفُها الفلّاحونَ في حُقولِهِم، ويُسمّيها الأولادُ «بَصْقَةَ القَمرِ». ولَكِنَّ الخَيالَ أَسبغَ على ذَلكَ الحَجرِ بالذّاتِ كثيراً مِنَ السِّحرِ، فباتَ يَختلفُ عَن سِواهُ ذَلكَ الاختلافَ الّذي دفعَ الجارَ لِاستخدامِ مِحكِّ التَّجرِبةِ واستشارةِ الخُبراءِ.

هَل يَئِسَ بو أسعدَ، وتَوقَّفَ عَنِ الحَفرِ؟... لا! أبي تَخلّى عَنْهُ في مُنتصَفِ الطّريقِ، واستمَرَّ هو وَحدَهُ في عَمِلهِ اللّيليِّ.

انقضى الشّهرُ، وبَدا عَلى الجارِ التَّحوُّلُ، وشيءٌ مِن قُنوطٍ، ولَمْ يَتراجعْ...

وفي ليلةٍ أُخرى، كُنّا ما نَزالُ ساهرينَ حينَ فاجَأَنا

الخيبةُ عدمُ الظّفر بالمطلوب، انقطاعُ الأمل.
أسبغ أوسع وأتمّ، ألقى وأضاف.
القُنوطُ اليأسُ.

بزيارتِهِ تُرافِقُه أمُّ أسعدَ:

ـ خَسرْنا الكنزَ يا أخي سُليمانَ... وسوفَ أقضي بقيّةَ أيّامي في النَّدمِ.

وحاولَ أبي أن **يُسرّيَ عَنْهُ**، فلَمْ يَسمعْ، وتابعَ:

ـ الكلامُ بسِرِّكَ، عادَ الشّخصُ ليلةَ أمسِ إلى زيارتي... وهَذهِ المرّةَ لَم يَقترِبْ منّي، لَم يَحُطَّ على الأرضِ، وظَلَّ مُقطِّبَ الجبينِ... وهَل تَدري ما قالَ لي؟... عبارةٌ واحدةٌ قَذفَها في وَجهي بغَضبٍ: «حَسِبْتُكَ تَستحقُّ الكنزَ يا بو أسعدَ... فإذا بكَ لا تَختلفُ عَن غَيرِكَ... أنتَ لا تَحفظُ السِّرَّ».

ـ ولَكِنْ...

قاطَعَهُ أبي... فلَمْ يُصغِ إِلَيْهِ بو أسعدَ، واستَطردَ:

ـ نَسيتُ أَهمَّ عبارةٍ فاهَ بها الرّجلُ الغريبُ في أوَّلِ زيارةٍ... قالَ لي: «تَحفِرُ وَحدَكَ... ولا تُطلِعْ أحداً عَلى السِّرِّ...» و... نَسيتُ.

سَرّى عنهُ: كشَفَ عنهُ الهَمَّ وأزالَهُ.

قصة

المُنْعَطفُ

جَسَ الأستاذُ مَمدوحٌ أمامَ مَكتبتِهِ القديمةِ، وأَشعلَ لِفافةَ تَبغٍ ثُمَّ أَطفأَها، ليُشعِلَ الثّانيةَ... **فانتابَهُ** سُعالٌ حادٌّ تَصبَّبَتْ له عُروقُه.

لَم يَكُنْ في الدّارِ أَحدٌ: أولادُه تَفرّقوا، كلٌّ إِلى عملِهِ... وزَوجتُه غائبةٌ، رُبّما خَرجَتْ إِلى السّوقِ لشراءِ بعضِ الحاجاتِ.

شَكرَ ربَّهُ على هَذا، وكأَنَّهُم فَسَحوا له هَذهِ الفُرصةَ عَن قصدٍ.

حاولَ أَن يَجمعَ **فِكَرَهُ** فخانَتْهُ القوّةُ... طَرحَ سؤالَهُ

إنتابَهُ: أصابَهُ.
الفِكَرُ: جمعُ الفكرةِ، وجمعُها على «أفكارٍ» خطأٌ شائعٌ

في الهواءِ:

- ماذا جَرى؟ كيفَ استغنَوْا عَنّي بهَذهِ السّهولةِ؟

وعادَ يوقِظُ ذِكرى اللّحظاتِ الأولى مِن نهارِهِ.

أَحَسَّ في صباحِ ذَلكَ اليومِ نشاطاً غريباً **يَسري** معَ دِماءٍ تَجري في عُروقِهِ مُنذُ ستّينَ سنةً.

- ما تَزالُ شيخَ الشّبابِ يا أُستاذُ!

عبارةٌ داعبَهُ بها وَليدٌ، بِكرُ أولادِهِ، وهو يُطلُّ مِن خَلفِ ظَهرِهِ، أمامَ المرآةِ، ليُسوِّيَ رَبطةَ العُنقِ.

وابتَسمَ له:

- شابٌّ بوُجودِكُم يا ولَدي... اللهُ يَحفظُكُم لنا!

- مَقالُكَ أَمسِ كانَ رائعاً. إنّكَ تَكتُبُ بنَفَسِ شابٍّ.

- مَديحٌ مردودٌ يا وَليدُ.

- هي الحقيقةُ يا أبي... وأنا أوّلُ المُعجَبينَ بقَلمِكَ **السّيّالِ**.

وأَحَسَّ بمَوجةِ دِفْءٍ تَتمشّى في صدرِهِ وتَدوبُ

سَرى الدّمُ: تَسَلسَلَ وسالَ.
السّيّالُ: الشّديدُ السّيلِ، والمقصودُ هُنا القلمُ الغزيرُ الكتابةِ.

حلاوةً وحناناً، فتَصِلُ إِلى **الخافِقِ** تُضاعِفُ سُرعةَ دقّاتِهِ.

وفي ذَلكَ الصّباحِ بالذّاتِ، أَطالَ التَّحديقَ إلى وَجهِ زَوجتِهِ، ورآها حميمةً... وازدادَ تفاؤلُه بالحياةِ.

حياتُه قَضاها مُجاهداً بوَساطةِ القَلمِ. جُنديٌّ مجهولٌ في عالَمٍ تتصارعُ فيه الآراءُ والعقائدُ، وبَقيَ مُحتفظاً بمَبادئِهِ ورَأيِهِ عَلى غَيرِ جُمودٍ... دليلُه البحثُ عَنِ الحقيقةِ، والتّجرُّدُ.

عَلى هَذه المبادئ رَبّى أولادَهُ وعاشَ معَ زَوجتِهِ، فبَقيَ مُخلِصاً لها ولهُمُ الإخلاصَ كُلَّهُ.

قَبّلَ خدَّ زَوجتِهِ بحرارةٍ، قَبلَ أَن يُغادرَ المنزلَ، وكانَ يَتمنّى لَو سَبقَهُ الأبناءُ في الخروجِ ليَستمتعَ بتَقبيلِ ثَغرِها: فمَنْ قالَ إِنَّ الزّواجَ يُخفِّفُ مِن حرارةِ الحُبِّ؟! ولَكنّهُ تَراجعَ عَن فِكرتِهِ خوفاً مِن سُخريّةِ الأبناءِ.

- معَ السّلامةِ يا مَمدوحُ.

وَقفَتْ عندَ البابِ تُشيِّعُه بنَظَراتِها، قَبلَ أَن تعودَ

الخافِقُ: القَلبُ.

لمتابَعةِ أعمالِها. وظَلَّ جَرْسُ صَوتِها يُرافِقُ خُطُواتِهِ عَبْرَ المارّةِ المُزدَحِمينَ في الشّوارعِ، وضَجيجِ المدينةِ.

لَكَمْ تَغيّرَ هَذا الحيُّ! حينَ انتقلَ إلَيْهِ قَبلَ ثلاثينَ سنةً، واستأجرَ هَذهِ الدّارَ، كانَت المَساكنُ مُتباعدةً، تُفرِّقُ بَينَها حدائقُ البُرتقالِ والزّيتونِ، وتَتّسِعُ أزِقّتُها مَلاعِبَ لِلصّغارِ.

في هَذا الحيِّ نَشأَ أولادُه ولَعِبوا، وجَمعوا الصّداقاتِ. وها كلُّ شَيءٍ يَتبدّلُ بسُرعةٍ مُذهِلةٍ! ولَمْ يَكُنْ له الوقتُ ليُفكِّرَ في هَذا التّحوُّلِ المُفاجئِ... وكأنّهُ أفاقَ فجأةً مِن نومٍ عميقٍ، ليَجدَ ناطحاتِ السّحابِ تُحيطُ به مِن كلِّ جِهةٍ: مكانَ كلِّ شجرةٍ عِمارةٌ جديدةٌ... ويَبدو مَنزلُه قَزماً بَينَ جيشٍ مِنَ العَمالقةِ.

ولَمْ يَشأْ أَن يُبدِّلَ المَسكَنَ، حِفاظاً عَلى الجِوارِ والذِّكرياتِ. الذِّكرياتُ تَخصُّه وَحدَهُ؛ في كلِّ ذرّةٍ

الجرْسُ: رنّةُ الصّوتِ، صداهُ الخفيُّ.
ازدحَمَ النّاسُ: تَدافَعوا وضايقَ بعضُهُم بعضاً.
الأزِقّةُ: مفردُها الزُّقاقُ وهو الطّريقُ الضّيِّقُ.

مِن هَذه التُّربةِ ذِكرى غاليةٌ... مَن قالَ إنَّها تُربةٌ؟ لَقَدْ تَحوَّلَتْ إلى إسفَلتٍ باهتٍ أصمَّ!

على بابِ المؤسَّسةِ لَقِيَ الحارسَ، فحَيّاهُ عَلى عادتِهِ، ورَدَّ الحارسُ تحيَّتَهُ بفُتورٍ... أوِ ارتباكٍ... ولَمْ يُعِرْ مَمدوحٌ الأمرَ كبيرَ اهتمامٍ.

استَقلَّ المِصعدَ إلى الطّابقِ السّادسِ، حَيثُ يَقعُ المَكتبُ، ومَرَّ بحيشِ «السّكريتاريا»، يُوزِّعُ نَوادرَهُ معَ التَّحيَّةِ المألوفةِ... فقابلَتْهُ ابتساماتٌ فاترةٌ انقبضَتْ لها نفسُهُ، وشَعرَ أنَّ قوَّةً خَفيّةً تَكمُنُ في الجوِّ مِن حولِهِ وتُبدِّلُ كلَّ شيءٍ... ولَمْ يَشأْ أنْ يُصدِّقَ.

أمامَ بابِ المَكتبِ وَقفَ مَشدوهاً: اللّافتةُ النُّحاسيّةُ ما تَزالُ في مكانِها، ولَكِنَّ الاسمَ...! أينَ اسمُه؟!

كانَ هُناكَ اسمٌ آخَرُ يَخُصُّ أحدَ رُفَقاءِ العملِ... محرِّرٌ صغيرٌ... شابٌّ تَسلَّقَ السُّلَّمَ بسُرعةٍ.

فَرَكَ عَينَيْهِ... هَذا حُلمٌ! بَل كابوسٌ! ما الّذي جَرى بَينَ الأمسِ واليومِ؟

الإسفَلتُ: الزِّفتُ.

وخَشِيَ أنْ يَلتفتَ إلى الوراءِ. شَعرَ أنَّ سِياطَ العُيونِ تَشوي ظَهرَهُ ومؤخَّرةَ رأسِهِ. وفي مُحاولةِ كشفٍ يائسةٍ، دَفعَ البابَ مِن غَيرِ استئذانٍ.

لَم يَكُنْ ما رآهُ حُلماً... هُوَذا سعيدٌ بعَينِهِ يَحتلُّ المكانَ الَّذي شَغلَهُ هو طَوالَ ثلاثينَ سنةً!

نَهضَ الشّابُّ عَنِ الكُرسيِّ مُرحِّباً:

ـ أهلاً أستاذُ مَمدوحُ.

رنَّةُ صَوتِهِ تَحملُ كثيراً مِنَ السُّخريّةِ، كلامُه رصاصٌ يَنطلقُ مِن فوهةِ رشّاشٍ ويُصادِمُ جدارَ صَدرِهِ.

ظَلَّ جامداً في مكانِهِ... يَرفُضُ أنْ يَسألَ هَذا **الصُّعلوكَ** عمّا يَجري في المؤسَّسةِ... ولَكِنْ مِن حقِّهِ أنْ يَحصُلَ عَلى الشَّرحِ معَ الاعتذارِ.

وقَهقهَ الأستاذُ سعيدٌ وهو يُقدِّمُ له عُلبةَ لفائفَ:

ـ سيجارةً أستاذُ مَمدوحُ؟

لَم يَرُدَّ علَيْهِ، ولَمْ يَتحرّكْ. وظَلَّ بَصرُه مُعلَّقاً في مكانٍ ما... في الفراغِ.

الصُّعلوكُ: الضَّعيفُ الفقيرُ.

انتبَه عَلى أَنَّ جُمودَهُ اعترافٌ **بالإخفاقِ**، فحاولَ التّمثيلَ مُتصنِّعاً المَرَحَ:

ـ هَذا مَكتبُكَ... أستاذُ سعيدُ؟

ـ نعمْ.

يُحيبُ!.. وبكُلِّ وقاحةٍ؟! بضربةٍ واحدةٍ، هَكذا، يَخترقُ صَدرَهُ فيَشطِرُه إلى شطرَيْنِ؟!!

ـ ولَكِنْ... ولَكِنْ...

ـ أستاذُ مَمدوحُ... رئيسُ التّحريرِ سيُكلِّمُكَ اليومَ في الأمرِ... تَرى... المؤسَّسةُ...

ـ أَجلْ، أَعرِفُ، المؤسَّسةُ بحاجةٍ إلى دمِ الشّبابِ، فقَرّرتِ الاستغناءَ عَن خِدْماتي... المؤسَّسةُ تَرى مِن مَصلحتِها فَصلي، وأَن تَستبدِلَ بي شابّاً بِمثلِ إخلاصِكَ ونشاطِكَ يا أستاذُ... سعيدُ!!!.

لَم يَكُنْ كلاماً داكَ الّذي خَرجَ مِن فمِهِ. كانَ أيَّ شَيءٍ، سِوى الكلامِ.

حاوَلَ سعيدٌ أَن يَعتذرَ:

الإخفاقُ: الفَشَلُ.

ـ الأَمرُ خارجٌ عَن إِرادتي... أنا موظَّفٌ، أَقومُ بما يُطلَبُ إِلَيّ، أُنفِّذُ أوامرَ رئاسةِ التّحريرِ... والمؤسَّسةِ... تَفضَّلْ، استرِحْ رَيثما أَطلُبُ لكَ كأساً باردةً.

يَطلُبُ له؟ في غرفتِهِ؟ في **عَرينِهِ**؟ هَذا المَكتبُ كانَ ساحتَهُ طَوالَ ثلاثينَ سنةً... فيه قابَلَ كبارَ القَومِ، وَعَقَدَ النَّدواتِ والاجتماعاتِ، وبَينَ جُدرانِهِ جَرى كثيرٌ مِنَ العِتابِ والمُناقَشاتِ و**المُساوَماتِ**. وكانَ هو **كالطَّودِ**، لا يَحيدُ عَن مَبدأٍ سارَ عليْهِ، ولا يَتخلّى عَن تجرُّدِهِ، ويُعلِنُ الحقيقةَ بِلا خَوفٍ ولا **مُوارَبَةٍ**... ولَمْ يَكُنْ يَنتظِرُ وِساماً يُعلَّقُ فَوقَ صَدرِهِ، ولا جائزةً ماليّةً تَزيدُ دَخْلَهُ الضَّئيلَ... كانَتْ مُكافأتُه وِقفةَ مَجدٍ وكرامةٍ، ومَسرَّةً داخليّةً لا تُعوِّضُ عَنْها كنوزُ الأرضِ.

ـ لا... شُكراً يا أستاذُ، لَستُ بحاجةٍ إِلى شرابٍ.

العَرينُ: بيتُ الأسدِ.
المُساوماتُ: مفردُها المُساومةُ وهي المفاصلةُ والمُقاولةُ في بيعِ السّلعةِ وشرائِها، وهُنا المقصودُ المُداولاتُ في قضيّةٍ.
الطَّودُ: الجبلُ.
المُواربةُ: المُخادعةُ.

لِمسِّ كرامتِهُ المُهانةَ، ودار عَلى **عَقِبِهِ** في اتِّجاهِ الباب... فلَحِقَهُ صَوتُ سعيدٍ:

ـ الأستاذُ يُصِرُّ عَلى رؤيتِكَ ليَشرحَ لكَ الوضعَ. اتَّصلَ بي قبلَ لحَظَاتٍ وَطلبَ إليّ أَن أَستبقيَكَ رَيثَما يَصلُ.

ـ قُل لأستاذِكَ إنّي لا أُريدُ رؤيةَ وجهِهِ، وبلِّغْهُ تَحيّاتي!

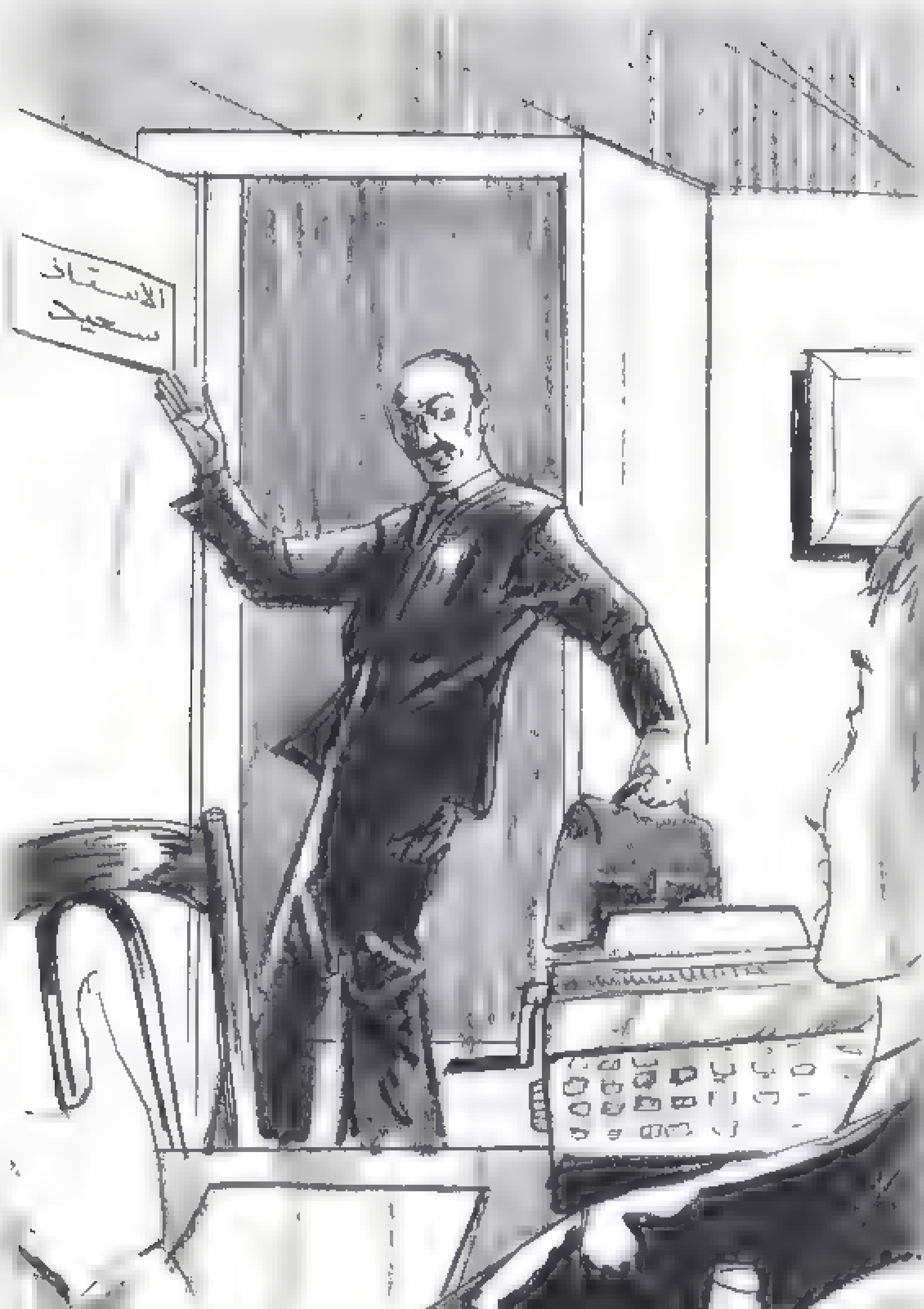
تَمنّى، في تلكَ اللّحظةِ، لَو يَنفتحُ سقفُ الغرفةِ ليَخرُجَ مِنْهُ، فلا يَعودَ إلى مقابَلةِ العيونِ المتسائلةِ المنتَظِرةِ خلفَ البابِ لتَسمعَ صُراخَهُ... لَن يَسمحَ بإشباعِ فُضولِهِم! بَقِيَتْ له كَرامتُه وَنَفسُه الكبيرةُ، وأوراقٌ وكُتبٌ تَخُصُّه، أَبصَرَها **معزولةً** فَوقَ طاولةٍ صغيرةٍ في رُكنِ الغُرفةِ، **فتَأَبَّطَها** ومَضى.

كانَ، طَوالَ سنواتِ عمرِهِ، يُفضِّلُ السَّيرَ عَلى قدمَيْهِ،

العَقِبُ: مؤخَّرُ القدم.

معزولةً: مُنَحّاةً وَمَوضوعةً جانباً.

تأبّطَها: وضَعَها تَحتَ إبطِهِ.


الاستاذ
سعيد

ولَكِنَّ القُدرةَ عَلى السَّيرِ تَخونُه الآنَ، وَهَذا الحِملُ فَوقَ يَدَيْهِ.

استَوقفَ سيّارةَ تاكسي، وطَلبَ إلى سائقِها أَن يوصِلَهُ إلى دارِهِ. حتّى الدّارُ تَبدَّلَتْ في لَحَظاتٍ.

كَيفَ يَجتازُ الإنسانُ تِلكَ المَراحلَ البعيدةَ **في غُضونِ لَحَظاتٍ؟**

عادَ يَتَسلّى بمُعادَلةٍ فِكريّةٍ، فيُحلِّلُ الَّذي جرى... لا يَذكُرُ أَنَّهُ قَصَّرَ في عملٍ، أَو تأَخَّرَ عَن مَوعِدٍ!...

وسعيدٌ، هَذا الصُّعلوكُ!... أَشْفقَ عليْهِ قبلَ خمسِ سنواتٍ، حينَ طَرقَ بابَهُ يَطلُبُ العملَ. كانَ تائهاً، فقيراً. كلَّفَهُ بإجراءِ بعضِ التّحقيقاتِ، وأَعجبَهُ أُسلوبُه، فراحَ يُشجِّعُه ويُدرِّبُه. ولَكِنَّ الفتى ظَلَّ بعيداً عَنْه، يُخالِفُه في نِظرتِهِ إلى العملِ، وما يُحيطُ بها مِن أمانةٍ، ومَبادئَ، وشَرفٍ، وبَحثٍ مُتواصِلٍ عَنِ الحقيقةِ.

ـ هَذه كَلِماتٌ فارغةٌ، لا وُجودَ لها في عالَمِنا اليومَ.

في غُضونِ لَحَظاتٍ: في خِلالِ لحظاتٍ.

كانَ هَذا جوابَ سعيدٍ يُطْلقُه **برُعونةٍ وتَشاوُفٍ**... فيُربِّتُ مَمدوحٌ كَتِفَه مُتودِّداً:

ـ ما تَزالُ صغيراً يا بُنيَّ، ولا يَغُرَّنَّكَ النّجاحُ السّريعُ. اعمَلْ بجَهدٍ، ولْيَكُنْ إخلاصُكَ وصِدقُكَ رأسَمالِكَ الأوّلَ.

وكانَ يُلاحظُ كَلِماتِهِ وإرشاداتِهِ تَخترقُ أُذُنَيِ الصّبيِّ، وتَخرُجُ مِن غَيرِ أَن تَترُكَ فيهِما أَثَراً.

وتَقدَّمَ سعيدٌ بسُرعةٍ، وبأُسلوبٍ مُناقِضٍ لأُسلوبِ مَمدوحٍ. فقَدِ انضَمَّ إلى **بِطانةِ** المُتَنَفِّذينَ في المؤسَّسةِ، وراحَ يَتودَّدُ إلَيْهِم ويَستميتُ في تقديمِ خِدْماتٍ جانبيّةٍ، لا تَتعلّقُ بالعملِ، ولَكِنَّها تَربِطُ الآخَرينَ برِباطِ التّفاهُمِ المُبطَّنِ... وفَسَحَ المُتَنَفِّذونَ المجالَ لِتلكَ الخِدْماتِ حتّى توصَّلَ صاحِبُها إلى فرضِ مشيئتِهِ. وكانَ مَمدوحٌ يُلاحظُ ذلكَ غيرَ راضٍ، ولَكِنَّهُ اعتبَرَ الأمرَ لُعبةً صِبيانيّةً

الرُّعونةُ: الحُمقُ والهَوَجُ.
التّشاوُفُ: التّكبُّرُ والتّعالي.
بِطانةُ الرَّجُلِ: أهلُهُ وجماعتُهُ وخاصّتُهُ.

لا تؤثِّرُ في صميمِ العملِ.

صَحيحٌ ما جَرى؟

الأستاذُ سعيدٌ يَحتلُّ الآنَ مكتبَهُ، ورُتبتَهُ، ومَكانتَهُ، بِلا جَهدٍ أو عرَقٍ... وقَدِ اجتازَها فَوقَ ظَهرِهِ. وساعَدَهُ على اختصارِ المسافةِ تَقوُّسُ هَذا الظَّهرِ، و**دَبيبُ الوَهَنِ** في السّاعدَيْنِ.

الدّبيبُ: السّريانُ والتّغلغلُ.
الوَهنُ: الضَّعفُ.

قصة

العائِدُ

عِندَما حَطّتِ الطّائرةُ فَوقَ أرضِ مطارِ «بَيروتَ»، كانَتْ تَجهلُ أَنَّها تَقومُ برِحلةٍ غَيرِ عاديّةٍ بالنّسبةِ إلى فارسٍ المُعتزِّ، وتُحقِّقُ حُلماً راوَدَهُ مُنذُ الطُّفولةِ، ونَما معَهُ بنُموِّ شَبابِه.

بَل بَدَتْ تِلكَ الآلةُ الحادّةُ الأزيزِ، السّريعةُ الانتقالِ، بَدَتْ في تِلكَ اللّحظاتِ بَليدةً، غَبيّةً، بِلا شعورٍ. ظَهرَتْ عَلى حقيقتِها المادّيّةِ: تركيبةٍ مِن آلاتٍ فولاذيّةٍ **صمّاءَ**.

أَحسَّ فارسٌ أَنَّ دَهراً قدِ انقَضى بَينَ هُبوطِ الطّائرةِ، وانفتاحِ بابِها أمامَ المُسافرينَ، والنّزولِ إلى الأرضِ فإلى أَحضانِ الأحبابِ.

الصّمّاءُ: الصُّلْبةُ المتينةُ.

وهُو، بالتّأكيدِ، كانَ له أَحبابٌ يَنتظرونَ فَوقَ الشُّرفةِ القريبةِ، وقَدِ استَعدَّ لهَذا اللِّقاءِ التّاريخيِّ كما يَليقُ بمُهاجِرٍ مِثلِه.

كانَ يَرتدي بِذْلتَهُ الإفرَنجيَّةَ (ومِن قَبلُ، كانَ لباسُه **سَراويلَ** مِنَ الكَتّانِ الأَسودِ).

وكأَنَّما البِذلةُ الجديدةُ «**لَم تَأخُذْ عَلى جسمِهِ**» عَلى رُغمِ السّنواتِ الخمسِ الَّتي قَضاها في «أَميركا»، فقَدْ ظَلَّتْ فَضفاضةً مِنَ الجهةِ الخَلفيّةِ، وكأَنَّما هُناكَ صِلةُ قُربى بَينَها وبَينَ زِيِّ الزَّمنِ الأوّلِ.

وكانَتْ تُرافِقُ البِدلةَ رَبطةُ عُنقٍ عريضةٌ، وَقِحةُ الألوانِ، تُناسبُ البِذلةَ. وبَدا شَعرُ المُغتربِ عَلى «موضةِ» هَذه الأيّامِ: فقَدْ أَرخى السّالفَيْنِ فأَصبحَ شبيهاً «**بكَرّازِ**» الماعزِ الَّذي اعتادَ رِفقتَهُ في سنواتِ ما قَبلَ الغُربةِ. أَو هَكذا كانَتْ ستَصِفُه جَدَّتُه نفّوحُ الَّتي

السّراويلُ: لباسٌ يستُرُ أَسفلَ الجسمِ، وهي مؤنّثةٌ جمعُها سراويلاتٌ.

لَم تأخُذْ عَلى جِسمِهِ: تعبيرٌ عامّيٌّ يَعني لم تَتَعوَّدْهُ ولَمْ تأْلَفْهُ.

الكرّازُ: التّيسُ الّذي يتقدَّمُ القطيعَ، وفي عُنقِهِ جرَسٌ.



دبي 10,50
الرياض 11,45
مصر 12,50
الأردن 13,40
الوصول
التفتيش

حالَ العجزُ دونَ حُضورِها برِفقةِ الأُسرةِ لاستقبالِ الحفيدِ الغالي. وكانَ الجزءُ الأكبرُ مِن وجهِ فارسٍ مُختفياً خَلفَ نظّارتَيْنِ سَوداوَيْنِ. وإذا كانَ بَينَ النّاسِ مَن يَنتقدُ الرَّجُلَ لِارتدائِهِ هاتَيْنِ النَّظّارتَيْنِ مِن غَيرِ سببٍ ظاهرٍ، فلا بُدَّ له مِنَ التَّراجُعِ أمامَ عُذرِ صاحبِهِما. كانَ يَنْشُدُ الظّهورَ بِهيئةٍ كامِنةٍ، ورُبّما كانَ اغترابُه في سبيلِ أن يَعيشَ لَحظاتِ العُمرِ هَذه، حينَ يَقفُ وِقفةَ اعتزازٍ وشُموخٍ وانتصارٍ عَلى القَدَرِ، ويُواجِهُ أهاليَ قَريتِهِ بالشّخصيّةِ الجديدةِ.

ومَن يَقولُ إنَّ قَدَرَهُ لَم يَكُنْ قاسياً مُنذُ فَتحَ عَينَيْهِ عَلى هَذه الدُّنيا؟ ومَن يُنكِرُ عَلى فارسٍ المعتزِّ طفولَتَهُ البائسةَ، وحداثتَهُ الحائرةَ في تِلكَ الشِّعابِ الوَعِرةِ، والمَسالكِ المُستحيلةِ، في قَريةِ «جورةِ السِّنْدِيانِ»، حَيثُ عاشَ سنواتٍ مغمورةً، يَقضي أيّامَها، مِنَ الفجرِ إلى ما بَعدَ الغُروبِ، في رعايةِ الماعزِ وخِدمتِها؟!...

التّفكيرُ في الهِجرةِ كانَ الأمَلَ الّذي يُخفِّفُ عَنْه

قَسْوةَ الحياةِ في أيّامِ **القَيظِ**، حينَ تُهوي الشّمسُ بسِياطِها الحاميةِ فَوقَ جَسدِهِ، تَشويهِ بلَهيبِها، وتُحوِّلُه إلى خَزّانٍ مِنَ العرَقِ والدّماءِ الفائرةِ؛ أَو في أيّامِ البردِ القارسِ، أَقسى الأيّامِ بالنّسبةِ إلى القطيعِ، عِندَما يَشِحُّ العَلَفُ، **وتُجدِبُ** المَراعي، ولا يَبقى أمامَ الرُّعاةِ سِوى أَغصانِ السِّنْدِيانِ **والمَلّولِ يُفرّعونَها** ويُقدِّمونَها عَنفاً لِلحَيواناتِ الجائعةِ، قَبلَ أَنْ يَسوقوها صَوبَ السّهولِ الحَنوبيّةِ، حَيثُ يَصرِفونَ أيّامَ الشّتاءِ رَيْثَما تَذوبُ الثُّلوجُ فَوقَ **الرُّبى** والجِبالِ، ويَعودُ الرّبيعُ يُزهِرُ في الحقولِ.

كانَ فارسٌ يَحلُمُ كثيراً، وبِوَساطةِ أحلامِهِ كانَ يَستطيعُ أَن يَقلِبَ وَضعاً، لِيَستبدِلَ به آخَرَ مُلائماً لِرَغبتِهِ، بِقَفزةٍ مِن خَيالِهِ الخَصبِ. وكُلّما اشتَدَّ دَهرُه

القَيظُ: الحرُّ.
تُجدِبُ: تيبَسُ أرضُها وتفقدُ خصبَها.
المَلّولُ: شجرُ البَلّوط.
يُفرّعونَها: تَعبيرٌ عامّيٌّ يَعني يَقطعونَ فروعَها وأغصانَها.
الرُّبى: التّلالُ، مفردُها الرَّبوةُ.

قَسوةً كانَتْ أحلامُه تَزدادُ تَصاعداً وانفتاحاً.

وفي تِلكَ الفترةِ البعيدةِ كانَ يَحلُمُ بنَفسِهِ شابّاً أنيقَ المَظهرِ، **ذَلِقَ اللّسانِ، وسيمَ** الشّكلِ عموماً، تَنجذِبُ إِلَيْهِ أَحلى صَبايا القَريةِ، ويَتسابقُ الشّبابُ إِلى صَداقتِهِ والاِلْتفافِ حَوْلَهُ.

ولَمْ تَكُنْ هُناكَ وسيلةٌ لتَحقيقِ الحُلمِ سِوى السَّفرِ. فصَبيٌّ مِثلُه، يَمتهِنُ رعايةَ الماعزِ، لا يُعقَلُ أَن يَتحوَّلَ، بَينَ ليلةٍ وضُحاها، إِلى «خَواجا» فَخمِ الهيئةِ، إِلّا مِن طريقِ الاِغترابِ.

وهَكذا بَدأَ يَجمعُ القروشَ، ويَتنصَّتُ لحديثِ المَهاجِرِ. وهوَّنَ علَيْهِ الأمرَ انقضاضُ مَرضٍ غريبٍ فَتَكَ بالقطيعِ **عَن بَكرةِ أبيهِ**، وتَركَ فارساً مُواجِهاً لأَحدِ أَمرَيْنِ: إِمّا استخدامِ ما وفَّرَهُ مِن نقودٍ لشِراءِ قطيعٍ جديدٍ، أَو شِراءِ «التّاولونِ» للسّفرِ، والاِتّكالِ عَلى اللهِ... وقَدْ

اللّسانُ الذَّلِقُ: الحادُّ.
الوَسيمُ: الحسَنُ، الجميلُ.
عَن بَكرةِ أبيه: بكامِلِه، كلِّه.

رَبِحتِ الفِكرةُ الثّانيةُ، وهاجرَ، وفي الغُربةِ اشتغلَ.

صحيحٌ أنَّ العملَ الجديدَ في المَهجَرِ لَم يَكُنْ بمُستوى أحلامِهِ، إذْ بَدأَ بغَسلِ الأطباقِ في مَطعمٍ قريبٍ له؛ إلّا أنَّ **كَدَّهُ** ساعدَهُ عَلى التّدرُّجِ والِارتقاءِ، ولَمْ يَلبَثْ أنْ أصبحَ له مَخزَنٌ صغيرٌ في إحدى القُرى **النّائيةِ**، وراحَ يُوَفِّرُ المالَ. وكانَ اقتصادُه لغايةٍ واحدةٍ هي العَودةُ؛ فمُذْ حَطَّ قَدمَهُ فَوقَ تُربةِ المَهجَرِ بَدأَ يَحلُمُ بالعَودةِ، وبالِاستقبالِ **الحافلِ** في المطارِ، وبَينَ أهالي القَريةِ.

وحتّى يَتوصَّلَ إلى ذَلكَ لا بُدَّ مِن **تَذليلِ عقَباتٍ**، والِارتقاءِ إلى مُستوى المناسَبَةِ. وصورةُ الشّكلِ التّقليديِّ لمُغترِبٍ مِنَ القَريةِ لَم تَكُنْ لتُفارِقَهُ، وهِيَ لَيسَتْ كلُّها مِن نَسجِ الخَيالِ؛ فقَدِ استَوْحاها، معَ مرورِ الأيّامِ، مِن وُجوهٍ كثيرةٍ تَعاقبَتْ عَلى زيارةِ قَريتِهِ. وكانَ

الكَدُّ: الِاشتدادُ في العملِ.

النّائيةُ: البعيدةُ.

الحافِلُ: الحاشِدُ.

تذليلُ العقَباتِ: إخضاعُها والسّيطرةُ عليها وتذليلُها، والعقباتُ: العراقيلُ.

واحدُهُم يَعودُ إلى وَطنِهِ الأوّلِ، بعدَ اغترابِ سنواتٍ طويلةٍ، مُحمَّلاً بالمالِ، يُنفِقُه عَن **سَعَةٍ**. وكانَ يَرتدي ثياباً إفرنجيّةً جذّابةً، وقُمصاناً مُنشّاةً، ورَبطاتِ عُنقٍ زاهيةَ الألوانِ، وقُبّعاتٍ عريضةً، ويَمضَغُ العِلكةَ، أو يُدَخِّنُ السّيجارَ الغليظَ وهو **يَرْطُنُ** بعربيّةٍ مكسّرةٍ، أو يَتعكّزُ على كَلِماتٍ إنكليزيّةٍ لا تَلبثُ أن تَنتشِرَ بينَ صِبيةِ القَريةِ: «سي...سي...نو...نو»، وكانَتْ قيمةُ انتشارِها تُقاسُ بنوعيّةِ الشّخصِ، ومَدى **سخائِهِ**، فإمّا أن تُصبحَ **دَعامةَ** احترامٍ وإعجابٍ إذا كانَ المُغتربُ عامرَ الجُيوبِ، مَبسوطَ الكَفِّ، رَحْبَ الصّدرِ، نَشوشاً؛ أو تَتحوّلُ إلى وسيلةٍ للسُّخريّةِ و**التّندُّرِ** والتّقليدِ، إذا فاحَتْ مِن **أعطافِهِ** رائحةُ البُخلِ والقِلّةِ.

السَّعةُ: البحبوحةُ والغِنى، الطّاقةُ والقُدرةُ.
يرطُنُ: يتكلّمُ بالأعجميّةِ أي باللّغةِ الأجنبيّةِ.
السّخاءُ: الكرمُ.
الدّعامةُ: الرّكيزةُ والسّندُ.
التّندُّرُ: تأليفُ النّوادرِ أي الأخبارِ الطّريفةِ والشّاذّةِ.
الأعطافُ: مُفرَدُها العِطفُ وهو الإبطُ أو الجانبُ.

وفارسٌ كانَ طامحاً إلى أن يكونَ الشّخصيّةَ الأولى.
وعَلى هَذا الأساسِ بَدأَ استعدادَهُ الباكرَ مِن طريقِ اللُّغةِ، والمالِ، والأَناقةِ. ولَكِنَّهُ، مِثلَ شَبابِ هَذه الأيّامِ، كانَ مِنْحاحاً مُتسرِّعاً يَطلُبُ الوصولَ مِن أَقربِ الطُّرقِ، فلَمْ يُعطِ نَفسَهُ أكثرَ مِن خمسِ سنواتٍ فُرصةً، قبلَ عَودتِهِ المُظفَّرةِ هَذه، أَي إِنَّهُ لَم يُنفِقْ في بلادِ الاغترابِ فَترةً كافيةً تؤمِّنُ التآلُفَ بَينَ جِسمِهِ والبِذلةِ، وبَينَ لِسانِهِ واللُّغةِ الغريبةِ، معَ العِلمِ أَنَّهُ نَجحَ في فَقْدِ جُزءٍ كبيرٍ مِن صِحّةِ ألفاظِ لُغتِهِ الأمِّ.

ولِكَي يَتِمَّ شَكلُ المُغترِبِ مِن كلِّ وُجوهِهِ، عَلَّقَ بكَتِفِهِ آلةَ تَصويرٍ يَجهلُ استعمالَها، ومِنظاراً يُقرِّبُ المسافاتِ، وقَدْ يَكونُ هَذا هو الشّيءَ الوحيدَ الّذي يَحمِلُ إليْهِ فائدةً فيما لَو رَجَعَ إلى عمِلِهِ الأوّلِ!

ولَكِنْ، ما لَنا وللمُزاحِ! الرّجلُ لا يُطيقُ أَن يَسمعَ كَلِمةً واحدةً تُذكِّرُه بالمِهنةِ القديمةِ، ولا بأيّامِ الطُّفولةِ.

الأناقةُ: حُسْنُ المظهرِ المُعجِبُ.

تِلكَ غسَّلَها مِن ذاكرتِهِ معَ الأطباقِ القَذِرةِ؛ طَرَحَها مِن بالِهِ، واستراحَ. وهو، لِهَذا يُريدُ مِنَ الآخَرينَ أن يَنسَوْها ويَستعيضوا عَنْها **بالتَّملّي** مِن طَلعتِهِ **البَهيَّةِ**.

وحينَ هَبطَ فارسٌ سُلَّمَ الطّائرةِ بَدا أكثرَ الرُّكّابِ ارتِباكاً. فقَدْ كانَ يَحمِلُ، فضلاً عَن بِذلتِهِ ونَظّارتَيْهِ، وما تَعلَّقَ بكَتِفِهِ مِن آلاتٍ، حقيبتَيْنِ صغيرتَيْنِ محشوَّتَيْنِ بالأمتعةِ... وسَبقَتْهُ نَظَراتُه باحثةً عَنِ المُستقبِلينَ. وقَبلَ أَن يَعثُرَ عَلَيْهِم بَدأَ يُلوِّحُ بيَدَيْهِ وعَينَيْهِ، ويُطلِقُ في غَفلةٍ عَن شخصيّتِهِ الجديدةِ، صَيحاتٍ تُعيدُه إلى جَوِّ المَراعي؛ وكانَ بَقيّةُ الرُّكّابِ يَهبِطونَ أمامَهُ، أو خَلْفَهُ، بصَمتٍ **وكَبتٍ**. وكأنَّما انطِلاقتُه ذكَّرَتْهُم بخُطورةِ تَهريبِ العواطفِ، فضاعَفوا الضَّغطَ عَلَيْها، وخَنَقوا ما كادَ يُفلِتُ مِن ضِحكاتٍ ساخرةٍ!

وأخيراً وَصلَ المُغترِبُ إلى حُضنِ أُمِّهِ. وكانَ هَمُّهُ

التَّملّي: الاستمتاعُ.
البَهيّةُ: الحَسَنةُ الظّريفةُ، المُشرِقةُ.
الكَبْتُ: قتلُ العواطفِ وإسكاتُها وخَنقُها.

الأوّلُ ألّا يَتصرّفَ كغَيرِهِ مِن أبناءِ قَريتِهِ البُسَطاءِ: كانَ عَلَيْهِ أنْ **يُطعِّمَ** كلامَهُ بالمُفرداتِ الغريبةِ، أو يَقلِبَ لسانَهُ عِندَ النُّطقِ ليُضيِّقَ مَخرجَ الألفاظِ العربيّةِ.

كانَ يُسلِّمُ على أقاربِهِ مِن بُرجِهِ الشّامخِ، من فَوْقُ، مِنَ الشُّرفةِ الّتي بَلغَها بعدَ اغترابِ سنواتٍ.

ومع أنَّ حَظّي لَم يُسعِفْني لأكونَ في عِدادِ المُستقبِلينَ في القَريةِ، إلّا أنّي لَم أُحرَمْ مِن سَماعِ أخبارِ المُغترِبِ العزيزِ، وقَدْ أصبحَتْ فَوقَ كلِّ شَفَةٍ ولسانٍ، وباتَتْ تُروى لِلتَّندُّرِ والتَّسليةِ. ولكنَّ هذا لَم يُفقِدْهُ احترامَ أصدقائِهِ القُدامى، الّذينَ ظَلّوا حيثُ تَركَهُم، ولَمْ تَنجحِ **التّفكِهةُ** في إقامةِ جِدارٍ بَينَ العائدِ وأُسَرِ الصّبايا المرشَّحاتِ للزّواجِ.

الاغترابُ أكسبَ فارساً لوناً آخرَ، ووَزناً جديداً، في نَظرِ الصَّبايا. لقَدْ غامرَ على الأقلِّ. كانَتْ له الجُرأةُ ليَتصدّى لقَدَرِهِ، فيُواجِهَه بالنِّضالِ والثّورةِ على الوضعِ

يُطعِّمُ: يمزُجُ ويخلطُ.

التّفكِهةُ: إطرافُ الآخرينَ بمُلَحِ الكلامِ، المُزاحُ.

السّائدِ؛ قالَ له، بالفعلِ: «إنّي أَستطيعُ تَخطّي الحدودِ التّي غرَسْتَني ضِمنَها...» ونَجحَ.

وهَكذا لَم يَجِدْ صُعوبةً في العُثورِ عَلى ابنةِ حَلالٍ، زَهرةٍ فَوّاحةِ العبيرِ، حُلوةِ اللّفَتاتِ، **غَضيضةِ الطّرْفِ**، **صَبيحةِ** الوَجهِ، واحدةٍ مِن بناتِ قَريتِهِ، خَطبَها وبَدأَ الإعدادَ لِلفَرحِ.

وكانَ لا بُدَّ مِنَ الهُبوطِ إلى «بيروتَ» لِانتقاءِ الجهازِ وشراءِ المَصاغِ.

والّذينَ تُفرِّقُهُمُ الأيّامُ تَجمعُهُم «بيروتُ»... هَكذا فكّرْتُ وأنا سائرةٌ ذاتَ صَباحٍ في «سوقِ الطّويلةِ»، أَستعرِضُ الواجهاتِ وأَتأمّلُ الصّبايا بأزيائِهنَّ الغريبةِ الملوّنةِ، يُرفرِفْنَ كأَسرابِ الوَروارِ.

ولَمْ أَجِدْ صُعوبةً في تَعرُّفِ وجهِ فارسٍ المُعتزِّ وسَطَ السّوقِ **المُكتظّةِ** بالنّاسِ.

غضيضةُ الطّرْف: فاترةُ العينِ، مُسترخيةُ الأجفانِ خجلاً وحياءً.
الصّبيحُ: الحسنُ، والوجهُ الصّبيحُ: المُشرقُ الجميلُ.
المُكتظّةُ: المُمتلئةُ.

بَدا لعَيني كَما وَصفَتْهُ تِلكَ الخيبَةُ مِن **مُحنَّكاتِ** الضَّيعةِ: كانَ يَرتدي بِذلتَهُ **الفَضفاضَةَ**، وقَدْ تَدلَّتِ الآلاتُ مِنَ الكَتِفَيْنِ، وغَطّى مِنظارُهُ مِساحةً واسعةً حَولَ العَينَيْنِ، وتاهَتْ تَطلُّعاتُه في كلِّ صَوبٍ وكأنَّها حائرةٌ تَبحثُ عَن عزيزٍ فقَدَتْهُ... معَ أنَّ المفقودَ وُجدَ، وها هو يَتجسَّدُ في صورةِ فتاةٍ كالدُّميةِ، مُزخرَفةِ الوَجهِ، سادَجةِ الخُطى، تَتعلَّقُ بإِحدى ذِراعَيْهِ، وتَبحثُ مِثلَهُ عَن هُويّةٍ جديدةٍ.

المُحنَّكُ: الكثيرُ التَّجاربِ والخِبرةِ في الحياةِ.

الفضفاضةُ: الواسعةُ.

قصة

نِعْمَةُ اللّه

كُلّما وَقعَتْ عَيني عَلى مَسعودٍ، تَذكَّرْتُ كتابَ بِرْتراندْ راسِل: «بُلوغُ السّعادةِ».

وحينَ تُفَرقِعُ ضِحكةُ مَسعودٍ الرّنّانةُ في حواءِ القَريةِ، تَتراقصُ حَولَها نَظريّاتُ الفَيلسوفِ وحِكَمُه، ويُخيَّلُ إليّ أنَّ الرَّجلَ استَوعبَ كلَّ كَلمةٍ دُوِّنَتْ في ذَلكَ الكتابِ القيِّم، وراحَ يُمارسُها، بَل يَعيشُها، في كلِّ لَحظةٍ مِن لَحظاتِ حياتِهِ؛ فَيَنتعِشُ إيماني بمَفعولِ الكَلمةِ، وأَشعُرُ أنَّ الجُهدَ الّذي بَذلَهُ ذَلكَ الفَيلسوفُ ليُرشِدَ الإنسانَ إلى طريقِ السّعادةِ قَد بَلغَ غايتَهُ، ما دامَ قَد تَوصَّلَ إلى خَلقِ نماذجَ بَشريَّةٍ مِثلِ مَسعودٍ.

ثُمّ أَتذكَّرُ أنَّ مَسعوداً لا يَقرأُ، ولا يَكتبُ. وحينَ

يُضطرُّ إلى توقيعِ اسمِه، يَستخدِمُ الإبهامَ ليَبصِمَ الإمضاءَ بَصماً... إذاً، لَيسَتْ هُناكَ أيُّ علاقةٍ تَربِطُه بدُنيا العِلمِ والفلسفةِ، سِوى الرّابطِ الذِّهنيِّ الّذي قادَني إلى هَذه المقارَنةِ. ذَلكَ أنّي، كُلَّما أبصرْتُه، شَعرْتُ أنَ عَيني تقعُ عَلى السّعادةِ مُجسّمةً في إنسانٍ.

ولماذا العِلمُ إذاً؟!

الرَّحلُ قانعٌ بما كُتبَ له، وهو المؤمِنُ بقِسمةِ الأرزاقِ، يُؤكِّدُ لكَ أنَّ اللهَ، حينَ خَلقَهُ فَوقَ هَذه **الفانيةِ**، شاءَ له أن يَمتهِنَ مَسحَ الأحذيةِ، وهو لا يَطمحُ إلى أكثرَ مِن هَذا، وتَكادُ تَظُنُّ مِن كلامِهِ أنّهُ وُلِدَ وتَحتَ إبطِهِ صُندوقُ مِهنتِه.

تَعرَّفْتُ به قَبلَ عَشْرِ سنواتٍ، حينَ قَصدْتُ مَعَ أُسرَتي هَذه القَريةَ الجبَلِيّةَ لقضاءِ عُطلةِ الصَّيفِ. قادَهُ إلَيْنا صَوتُه الرَّنّانُ «بويا... بويا...» يَتردَّدُ بَينَ الأَزِقّةِ، تُرجِّعُ أصداءَهُ الأَوديةُ، و**يَتلقَّفُه** صِبْيةُ الحيِّ...

الفانيةُ الزّائلةُ، والمقصودُ الحياةُ الدُّنيا.
يتلقّفُه يَتناولُه بسُرعةٍ، يُسرِعُ إلى لقائِه.

ومعَ أنَّ ذلكَ الصَّوتَ أصبحَ، بالنِّسبةِ إلَيْنا، مِن بعضِ **مَعالِمِ** الاصطيافِ، إلّا أنَّهُ لَم يَكُنِ المَوهِبةَ الرّئيسةَ الّتي خَصَّتْ بها الطّبيعةُ صديقَنا مَسعوداً...

وأوّلُ ما يَلفِتُ النَّظرَ، حينَ تَلْقاهُ، وَجهُه المُشرِقُ، بكُلِّ ما تَحملُ هَذه العِبارةُ مِن مَعنىً... وجهٌ أَسمرُ لوَّحَتْهُ الشَّمسُ، وتَركَتْ فَوقَهُ آثارَ العافيةِ، تُضيئُه بَسمةٌ لا تُفارقُه إلّا عندَما يَتأهَّبُ لإطلاقِ ندائِه التَّقليديِّ؛ وعَيناهُ البَسيطتانِ لا تَنفتحانِ إلّا لغايةٍ واحدةٍ، هِي إرشادُه إلى مَوطِئِ قدمَيْه، أو إلى زَبونٍ جديدٍ.

ولأنَّ وُجوهَ المُصطافينَ في هَذه القَريةِ قَلَّما تَتبدَّلُ، فقَدْ أَصبحَ لمَسعودٍ **زُبُنٌ** دائمونَ يَنتظرونَ انطلاقَ ندائِه ليُرسِلوا أولادَهُم في أَثَرِه... وهو قَلَّما يَحتاجُ إلى هَذا، إذِ اعتادَتْ قَدماهُ سُلوكَ طريقٍ تقليديٍّ يَسوقُه عَبْرَ المَساكنِ جميعِها، حَتّى إذا وَصلَ إلى المَراكزِ

المعالِمُ: العلاماتُ المميّزةُ، وما يُستدَلُّ به عَلى الطّريقِ.
الزُّبُنُ: مفردُها الزّبونُ وهو عميلُ التّاجرِ أو صاحبِ المهنةِ.

الحسّاسةِ أَطلقَ نداءَهُ ووَقفَ يَنتظِرُ لَحظاتٍ، قَبلَ أَن يُتابعَ المَسيرَ.

ومعَ الأيّامِ نَمتْ بَيننا وبَينَ مَسعودٍ صداقةٌ طيّبةٌ، فجَعلَ زاويةَ دارِنا مَركزاً لإطلاقِ ندائِهِ؛ حتّى إذا استَدعَيْناهُ لبّى الطَّلبَ بفرحٍ ظاهرٍ، وقَفزَ بقامتِهِ **الفارعةِ** إلى قِمّةِ السُّلَّمِ، حَيثُ يُركِّزُ كُرسيَّهُ ويَنصرِفُ إلى العملِ بجِدٍّ وصَمتٍ.

وكانَ يَقطعُ حبلَ صمتِهِ ليُجيبَ عَن سؤالٍ يُوجَّهُ إلَيْهِ، مِن غيرِ أَن يَرفعَ نظرَهُ عَنِ الحذاءِ بَينَ يدَيْهِ.

والسّؤالُ يَدورُ عادةً حولَ الصِّحّةِ والأحوالِ، ولا يَخرجُ عَن **طَورِ** المُجاملةِ التّقليديّةِ؛ فالرَّجلُ يَبدو على أَحسنِ حالٍ. و**عافِيتُه**!... يا باركَ اللهُ!...

وغَيرُ هَذا؟ الأوضاعُ العائليّةُ!... مَسعودٌ متزوِّجٌ، وزَوجتُه تَصغُرُه بثلاثينَ سنةً!

الفارعةُ المُرتفعةُ، الطّويلةُ.
الطّورُ: القَدْرُ والحدُّ.
العافيةُ: الصّحّةُ التّامّةُ.

ضَحكَ طويلاً حينَ قرأَ الدّهشةَ في عَينيَّ، وتَمتمَ:

- إيه يا سِتّي... صدِّقيني أَقولُ الحقيقةَ.

- ولَكِنْ، كَم عمرُ هَذه الزّوجةِ يا مَسعودُ؟

سَألْتُه، وأنا غارقةٌ في ذُهولي، وأجابَ بِلا تَردُّدٍ:

- أربعونَ سنةً يا سِتّي...

- يَعني عمرُكَ سعونَ؟ هذا غَيرُ معقولٍ!

هزَّ رأسَهُ مؤكّداً:

- أَجَلْ يا سِتّي، مَعقولْ ونِصْ... لا يَبدو عليَّ **الهَرَمُ**، هَذا صَحيحٌ، رُبَّما هَذه مِن نِعَمِ الله عَلى عائلتِنا. فأَبي جاوَزَ المئةَ مُذ عَشْرِ سنواتٍ، وما يَزالُ في أَحسنِ حالٍ.

أَغرَتْني أَجوبَتُه بالمَزيدِ مِنَ الأسئلةِ:

- وعِندَكَ أولادٌ يا مَسعودُ؟

وَرفعَ عَينَيْهِ إليّ بما يُشبِهُ العِتابَ، وأجابَ:

- طبْعاً، وبَدّها سؤالْ؟ عِندي تسعةٌ لله، خمسةُ ذُكورٍ وأربعُ إناثٍ.

الهَرَمُ: الشَّيخوخةُ، بُلوغُ أقصى الكِبَرِ.

وسَألْتُه عَن أعمارِهم فقالَ:

ـ الكبيرُ متزوِّجٌ، وهو في الخامسةِ والعشرينَ، والصُّغرى طفلةٌ في شَهرِها السّادسِ.

وسَمِعْتُني أُردِّدُ:

ـ اللهُ يُوفِّقُكَ يا مَسعودُ!

شَعَرْتُ أنَّ مِثلَ هَذا الدُّعاءِ ضروريٌّ جدّاً، لأنَّ الرَّجلَ يَحتاجُ إلى كلِّ ذَرَّةٍ مِنَ التَّوفيقِ ليُربِّيَ هَذه العائلةَ، ليُعيلَ المتَّكلينَ عَلى الفُرشاةِ بَينَ أصابعِهِ.

دَزّينةُ أفواهٍ تَطلُبُ اللُّقمةَ، ولَيسَ هُناكَ مَن يَزُقُّها سِوى يدَيْ مَسعودٍ!

ومعَ هَذا ها هو يَبتسمُ! بَل إنَّ الابتسامةَ لا تُفارِقُ شَفَتَيْهِ، تُضيءُ تَقاطيعَ وَجهِهِ، ثُمَّ تَنفُذُ مِن عَينَيْهِ، وتَكادُ ظِلالُها تَنفرِشُ فَوقَ كِيانِهِ كلِّهِ...

وهو يَسيرُ مُنتصبَ القامةِ، مَرفوعَ الرّأسِ، ويَظُنُّ النّاظرُ إلَيهِ أنَّهُ يَنظرُ إلى شابٍّ لا يُجاوِزُ الأربعينَ.

يَزُقُّ الطّائرُ فراخَهُ: يُطعِمُها بمناقيرِها.

وَقفْتُ أتأمّلُه وهو يُغادرُ دارَنا، وأتساءَلُ: كَيفَ تَعرَّفَ الرّجلُ هَذا الكنزَ؟ وهَذه الحِكمةُ الّتي تَخفى عَى أربابِ العِمِ، كَيفَ يَتوصّلُ إلَيْها البُسَطاءُ؟ أوَلسْنا كنُّا نَسعى لِلحُصول عَى السّعادةِ؟ وفي سبيلِ هَذا نَشقى، ونَتعلّمُ، ونَسهرُ، ونَكدحُ، ونُحرِقُ أعصابَنا في نيرانِ التَّجارِبِ، وتَجرحُ أشواكُ الدّروبِ الموحِشةِ أَقدامَنا، وعَلى رُغمِ كلّ شيءٍ نُتابعُ المسيرَ، ونَمشي في صَحراءَ لا حُدودَ لَها، أَمَلُنا سَرابٌ يَلوحُ لنا مِن بَعيدٍ، حتّى إذا قَفزْنا إلَيْهِ تَكشَّفَ عَن وَهمٍ وفَراغٍ!

أَوَلَيسَ مِن أَجلِ الوُصولِ إلى السّعادةِ نَقرأُ، ونَبحثُ في بُطونِ الكُتبِ قديمِها وحديثِها؟

أَوَلَمْ يَكُنْ بِرْتراند راسِل واحداً مِن أولَئكَ المُشتاقينَ إلى عِناقِ السّعادةِ، حينَ وَضعَ كتابَهُ وضَمَّنَهُ عِدّةَ وَصَفاتٍ مُجرَّبةٍ؟!

وأنا، لماذا أَقرأُ، وأُعيدُ قراءةَ فُصولِ هَذا الكتابِ

كَدَحَ في العملِ: جَهَدَ نفسَهُ فيهِ وكَدَّ.

وسِواهُ؟... أَوَلَيستْ غايَتي الوُصولَ إلى وَضعٍ يُشبِهُ وَضعَ مَسعودٍ؟

وها هو يُجاوِزُ مَكاني، ويَغيبُ خَلفَ المُعطَفِ الآخَرِ، ويَبقى صَدى نِدائِهِ يَطرُقُ أُذنيَّ، ويَدفعُني لأَفتحَ الكتابَ مُجدَّداً، وأَبحثَ عَن بعضِ المفاتيحِ، لا في سَبيلِ التَّوصُّلِ إلى السَّعادةِ، بَل لأَكتشفَ أسرارَ سعادةِ ذَلكَ الإنسانِ.

أسرارٌ؟!... بَل هُناكَ أسبابٌ مُعيّنةٌ، بِحَسَبِ رأيِ فَيلسوفِنا... إذا حَصلَ عليْها الإنسانُ كانَتِ السّعادةُ مُلكَ يدَيْهِ... وهو يُلخّصُ لنا الأسبابَ في نِقاطٍ رئيسةٍ هي: الحُصولُ عَلى الطّعامِ والمأوى، والصِّحّةُ، والحبُّ، والنَّجاحُ في العملِ، واحترامُ النّاسِ، ثُمّ الأولادُ.

ومَسعودٌ قابضٌ عَلى هَذهِ الأسبابِ جميعِها: الطّعامُ والمأوى يَتبعُ فيهِما تيّارَ المُصادَفةِ ويَعيشُ مِثلَ طيورِ البَرِّ، حَتّى إذا حَلَّ المساءُ عادَ إلى عُشِّهِ الصّغيرِ، حَيثُ تَغمُرُه محبّةُ الزّوجةِ والأولادِ... وهو ناجحٌ في عملِهِ...

والصِّحّةُ كالحديدِ! واحترامُ النّاسِ أمرٌ نِسبيٌّ... أمّا الأولادُ، فَهُمُ الشِّقُّ الّذي يُرجِّحُ كَفّةَ الميزانِ لمَصلحتِهِ. وماذا بَقيَ يا سيِّدي الفَيلسوفَ؟...

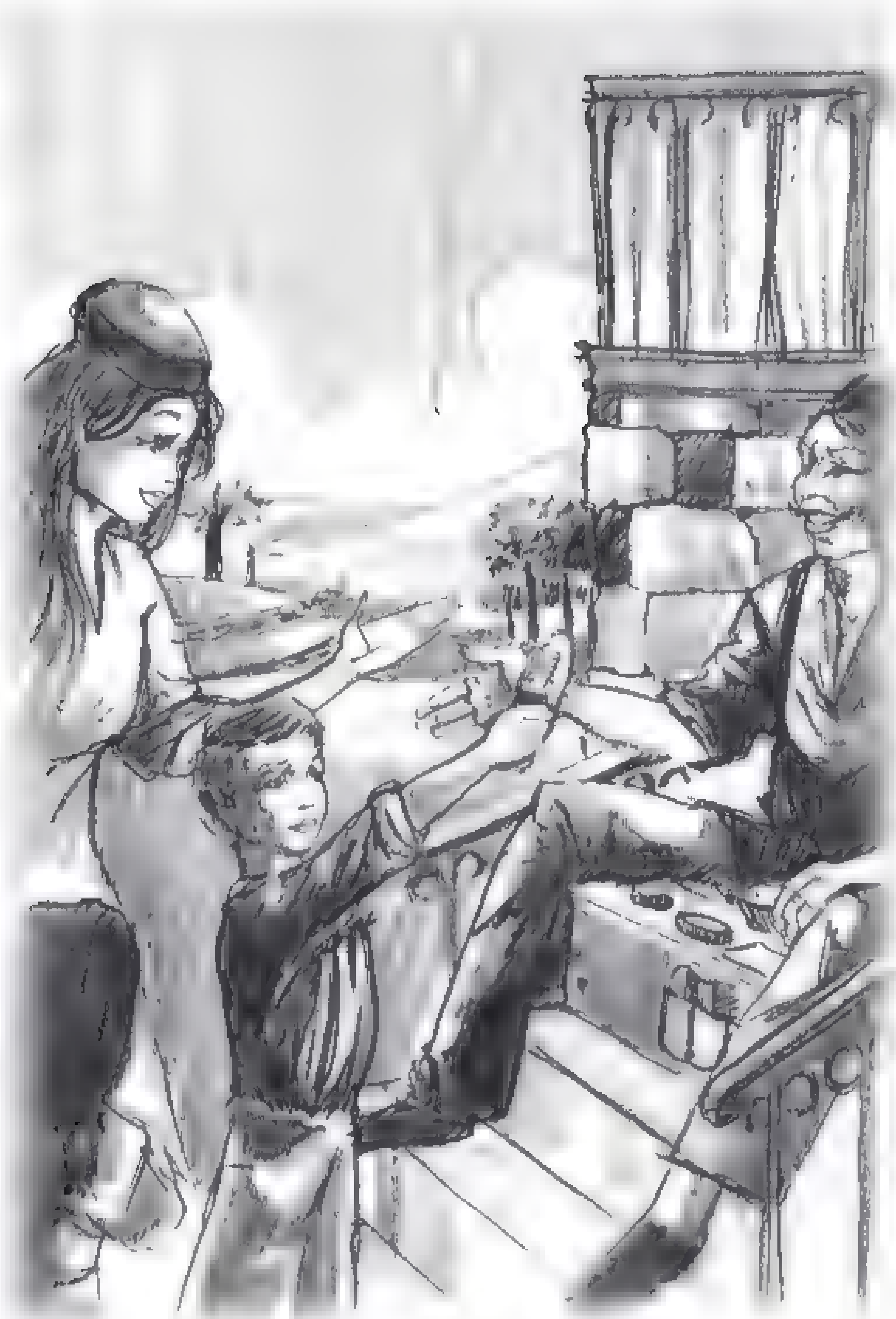
قُلتَ المَعرفةُ؟... مَسعودٌ بغِنىً عَنْها... وهو يَعيشُ خارجَ بَوّابةِ العَصرِ.

مضَتْ سنَتان عَىى حديثِنا الطّويلِ، وكُنْتُ خِلالَ هَذهِ المُدّةِ مُنهمِكةً بمَشاغلي وهُمومي، حَتّى إذا لَقيتُ مَسعوداً طَرحْتُ علَيْهِ أسئلةً شاملةً ومقتضَبةً. وفي الواقعِ كُنْتُ أتحنَّبُ الخَوضَ في التّفاصيلِ، خَوفَ أَن أَسمعَ خَبراً يُحمِّلُني همّاً حديداً؛ إلّا أنَّ ابتسامةَ الرّجلِ المُطمئنّةَ كانَتْ تَصرِفُني وأنا مُرتاحةُ البالِ مِن جِهتِهِ، ولِسانُ حالي يُردّدُ معَهُ:

ـ اللّهُ يَبعَثُ الرِّزقةَ.

كَيفَ عُدتُ أمسِ إلى طَرحِ الأسئلةِ المُفصّلةِ؟ ولماذا؟ لَسْتُ أَدري.

كانَ مَسعودٌ، عَلى عادتِهِ، مُتمركِزاً فَوقَ قِمّةِ الدَّرَجِ، وأَولادي وأَولادُ الجيرانِ يَحمِلونَ إلَيْهِ أَحذيتَهُم



لِيُنظِّفَها، وهو يُداعبُهُم ويُلاطفُهُم، بَينما تَنهمِكُ يَداهُ بإزالةِ الوَحلِ عَن نِعالِهِم.

ووَقفْتُ أَتأمَّلُ يَدَيْهِ النَّشيطتَيْنِ وهُما تَعملانِ بِلا مَلَلٍ، تَعملانِ بمَحبَّةٍ، والحذاءُ يَرتاحُ بَينَهُما مُكرَّماً مُعزَّزاً... وانطَلقَ السّؤالُ عَنِ العائلةِ مِن بَينِ شَفَتَيَّ بصورةٍ عَفْويّةٍ، فبادرَني بالجوابِ:

ـ الجَميعُ بخَيرٍ يا سِتّي.

وقُلتُ مُبديةً إعجابي:

ـ لا أُخفيكَ يا مَسعودُ أنّي مُعجَبَةٌ بنَشاطِكَ. تُعيلُ تسعةَ أولادٍ، ولا أَسمعُكَ تَتذمَّرُ أَو تَشكو زمانَكَ، بَل، خِلافاً لهَذا، إنَّ مَن يَراكَ يَشعُرُ بأنَّكَ في غايةِ السّعادةِ ومُنتهى الرِّضى.

وقاطَعَني مُصحِّحاً:

ـ قُلتِ تسعةَ أولادٍ؟... عفواً يا سِتّي، العائلةُ زادَتْ!

وهَتفْتُ:

تنهمِكُ: تنشغلُ بجدٍّ

ـ ولدٌ جديدٌ؟!... مبروكٌ!

وغَرِقَ في ضِحكةٍ عجيبةٍ، قبل أَن يَرُدَّ عَلَيَّ:

ـ ولدٌ؟.. بَل أربعةُ أولادٍ!

ولَم أَتمالَكْ عَنِ القَولِ:

ـ أَتهزَأُ بي يا مَسعودُ؟...

فعادَ إلى الجِدِّ وتابعَ:

ـ حاشا يا سِتّي... أَنتِ لَم تَسمعي أخبارَنا مُنذُ سنتَيْنِ. ففي العامِ الماضي وَضعَتِ ابنَةُ عَمّي تَوأمَيْنِ أُنثيَيْنِ، وفَكَّرْنا أَنَّهُما آخِرُ حَبّاتِ العُنقودِ. لَكِنَّ اللهَ، سُبحانَهُ وتَعالى، عادَ هَذا العامَ فأَنعَمَ عَلَيْنا بِتَوأمَيْنِ ذَكَرَيْنِ...

وقاطَعْتُه بقَولي:

ـ وتُريدُ مِنّي يا مَسعودُ أَن أُصدِّقَ أَنَّ عُمرَكَ اثنتانِ وسبعونَ سنةً؟...

وأَدركَ الدُّعابةَ في لَهجتي، فضَحِكَ حَتّى كادَ يَقعُ عَنِ الكُرسيِّ، ثُمَّ عادَ يُتمتِمُ:

ـ نِعمةُ اللهِ، عَزَّ وجَلَّ... هَذهِ إِرادتُه... وما عَلَيْنا سِوى الخُضوعِ.

ثُمَّ هَبَّ بحَماسةٍ، فنَفضَ سَراويلَهُ، وتَأبَّطَ الصُّندوقَ ومَضى... وبَقيتُ واقفةً في شِبهِ ذُهولٍ... وأنا أُسائلُ نَفسي:

ـ لَو أَنَّ الإنسانَ يَبسُطُ حياتَهُ إلى الحَجمِ الَّذي تَدورُ فيه حياةُ مَسعودٍ، أَفَما كانَ قابضاً عَلى زِمامِ السّعادةِ؟

وقَطعَ تَفكيري صَدى النِّداءِ آتياً معَ نسائمِ الصّيفِ، وكأَنَّهُ جوابٌ عَن سؤالي... كانَ ذاكَ نداءَ مَسعودٍ آتياً مِنَ الطَّرَفِ الآخَرِ مِنَ القَريةِ.

قصة

القَصْرُ

ـ تَفضَّلْ... تَفضَّلْ يا دُكتورُ، ما في شي مْنِ الْواجِبْ.

ـ المأدُبةُ عَلى شَرَفِكَ يا دُكتورُ... بصِحّتِكَ يا دُكتورُ.

كانَ كلُّ مَنْ حَولَهُ يَضِجُّ، يَتحدَّثُ، يَمضَغُ الطّعامَ ويَشربُ. وهو يُدني الكأسَ مِن شفَتَيْهِ، يَتذوَّقُ السّائلَ، ثُمَّ يُعيدُ الكأسَ إلى مكانِها فَوقَ المائدةِ.

ـ بَدَّكْ عَزيمِهْ يا دُكتورْ؟

إنَّهُ ضَيفُ الشَّرَفِ في دارِ حليمِ بَيْكٍ. ومِن حَولِهِ زَوجةُ البَيْكِ وأبناؤه وإحدى بَناتِهِ، يَدفعونَهُ ليأكلَ، حائرينَ كَيفَ يُغدِقونَ عَليْهِ اللُّطفَ والتّكريمَ والاحترامَ.

اللهُ يا دُنيا!

لَم يَستطِعْ أَن يَشعُرَ بأيِّ اسجامٍ بَينَهُ وبَينَهُم. وازدَحَمَتْ في الجوِّ ذِكرياتُ الماضي.

كانَتْ تِلكَ أَوّلَ مَرّةٍ يَدوسُ فيها عَتبةَ البَيْكِ ويَدخلُ القصرَ. وفي الماضي كانَتِ البوّابةُ الخارجيّةُ هِي الحدَّ الَّذي يَصلُ إِلَيْهِ بَصَرُه ثُمّ يَرتدُّ... والقصرُ في طريقِهِ، كُلَّما خَرجَ مِن قَريتِهِ أَو عادَ إِلَيْها يَمرُّ به، يَمسَحُ جُدرانَهُ الخارجيّةَ بنِظْراتٍ مُستَفهِمةٍ.

عادَ يُبصِرُ نَفسَهُ طِفلاً يُرافقُ أباهُ إِلى سوقٍ قَرويّةٍ تُقامُ مَرّةً كلَّ أُسبوعٍ. أبوهُ يَمتطي ظَهرَ دابَّتِهِ، وهو أمامَهُ في حِضنِهِ، وعَيناهُ تَسبِقانِهِ، تَبحثانِ عَنِ الغريبِ الجديدِ... ومِن حينٍ إِلى آخرَ يَرفعُ صَوتَهُ بسؤالٍ:

ـ لِمَنِ القصرُ والبساتينُ يا أبي؟

ويُجيبُه الصَّوتُ في الحالِ:

ـ لِحليمٍ بَيْكٍ يا بُنيّ. بَيْكٌ وابنُ بَيْكَواتٍ... والدُه كانَ مِن قَبلِهِ، وجَدُّه قبلَ أبيهِ... أَهلُ عِزٍّ ومَجدٍ يا ابني، ونحنُ...



ويَبلعُ بقيَّةَ الكَلِماتِ.

ويَعودُ هو يَسألُه:

- أبي، هَل تَعرِفُ البَيْكَ؟

- حياتُنا كلُّها مِن نِعَمِهِ يا بُنيَّ. مِن خَيراتِ أرضِهِ.

- والبَيْكُ كبيرٌ يا أبي؟

- كبيرْ كثيرْ، الله يِطْعَمَكْ تِكْبَرْ، وِتْشوفو.

- وشو فيه بالقَصرْ يا أبي؟

السّؤالُ السّاذَجُ يُسكِتُ الأبَ لَحَظاتٍ قَبلَ أنْ يُجيبَ بِصَوتٍ ضاحِكٍ:

- وشو ما فيه بالقَصرْ يا بْني؟!

في تِلكَ اللّحَظاتِ كانَ القَصرُ يَنتقِلُ مِن مكانِهِ فَوقَ الهَضْبةِ المُترفةِ عَلى القُرى المُجاوِرةِ، يَنتقِلُ بحدائِقِه وأشجارِهِ وأزهارِهِ لِيُصبحَ كلاماً وَرديّاً بَينَ الابنِ وأبيهِ.

الأبُ يَغيبُ معَ صَوتِهِ، يُمسِكُ بطَرَفِ الحبلِ

الهَضْبةُ: الجبلُ المُنبسطُ الطَويلُ، كُلُّ ما ارتفعَ من الأرضِ.

ويَحكي. ويُدحرِجُ الصُّوَرَ، فيَلتقِطُها خَيالُ الصّغيرِ، ويَرفعُها إلى عَينَيْهِ.

ويَعيشُ القَصرُ بَينَ الاثنَيْنِ حكايةً تُحكى، وخاطِرةً تَرقُصُ، ودُنيا أشعّةٍ وسعادةٍ.

ويَكبَرُ الطّفلُ، ويَتقدَّمُ بَينَ **أقرانِهِ** في المدرسةِ... ويَجتازُ مَرحلةَ العِلمِ في مدرسةِ القَريةِ بسُرعةٍ مُذهِلةٍ، ويَبدأُ تَطلُّعَهُ إلى الخارجِ.

لَم يَكُنْ لأبيهِ المالُ ليُساعِدَهُ عَلى مُتابعةِ دِراستِهِ، فاستعانَ الولَدُ بالحيلةِ عَلى أمرِهِ. راحَ يَعملُ في اللّيلِ ويَدرسُ في النّهارِ. وكانَ يَعودُ إلى قَريتِهِ معَ كلِّ عُطلةٍ مَدرسيّةٍ... وتَحمِلُه الطّريقُ بجانبِ قصرِ البَيْكِ...

ويُطالِعُه المَشهدُ نَفسُه: الجُدرانُ **الصَّمّاءُ**، والبَوّابةُ **الموصَدةُ**.

وكانَ يَسمعُ أخبارَ أهلِ القَصرِ مِن سُكّانِ القَريةِ،

قِرنُ فُلانٍ: نظيرُه ومثيلُه في العلمِ وغيرِه.

الصَّمّاءُ: الخرساءُ، السّاكتةُ.

الموصَدةُ: المُغلَقةُ، المُقفَلةُ.

ومِن أَبوَيْهِ: «ابنُ البَيْكِ تَخرَّجَ في الجامعةِ»، «البَيْكُ ناوي يِتْرَشَّحْ لِلانتخاباتْ النّيابيّة»، «بِنْت البَيْكْ رَحْ تِخْطُبْ مَليونيرْ».

لَم يَفُتْهُ واحدٌ مِنَ الأخبارِ. كانَتْ تَنهمِرُ عَلى سَمْعِهِ مِن كلِّ صَوبٍ. كانَتْ أَهَمَّ أخبارٍ بالنِّسبةِ إِلى أبيهِ وإلى الفلّاحينَ الّذينَ يَغرِسونَ أَراضيَ البَيْكِ.

... وتَمضي الأيّامُ، فيُنهي دِراستَهُ، ويَتخرَّجُ في الجامعةِ حاملاً شهادةَ الطِّبِّ... ثُمَّ يقومُ بسَفرةٍ إِلى الخارجِ للتَّخصُّصِ... ويُجَلّي... وتَسبِقُه شُهرتُه إِلى وطَنِهِ: الدُّكتورُ رجاءٌ... أَشهرُ اختصاصيٍّ في أَمراضِ القلبِ.

والأيّامُ تَمرُّ، ويَتعَبُ قَلبُ البَيْكِ، فيَستدعي أَشهرَ أطبّاءِ المَنطِقةِ لمُساعَدتِهِ. ويُقصّرونَ.

ووَصلَتِ الدَّعوةُ إِلى رجاءٍ... الاِختصاصيِّ العائدِ حديثاً مِنَ الخارجِ.

لم يَفُتْهُ: لم يَغِبْ عنه.

جَلّى الأمرَ: كشفهُ وعبّر عَنْه، والمقصودُ هُنا كَشَفَ مهارتَهُ وقُدرَتَهُ العظيمة.

تَوقّفَتْ به السّيّارةُ أمامَ بوّابةِ القَصرِ، وأَبصرَ البابَ الحديديَّ يُشرَعُ في وَجهِهِ، ثُمَّ يَتقدَّمُ مِنْه كبيرُ أبناءِ البَيكِ مُرحِّباً.

وفي الدّاخلِ استقبَتْهُ زَوجةُ البَيْكِ: شَيخَةٌ **تُجَرِّرُ** خُطُواتِها نَحوَ الأيّامِ الرّماديّةِ.

تَدحرجَتْ كَلماتُ التّرحيبِ مِن شَفتَيْها، ثُمَّ جَرَتْ أمامَهُ تُرشِدُه إلى غُرفةِ البَيْكِ، مِن غيرِ أَن تَتوقَّفَ عَنِ التَّمتَمةِ بكَلِماتِ التّرحيبِ والإكرامِ.

كانَ يَسمعُ صَوتَها آتياً مِن بعيدٍ. وراحَتْ عَيناهُ تَتنقّلانِ في أَرجاءِ القَصرِ، فلَمْ تُبصِرْ فيهِ أثراً لِحكايات ألفِ لَيلةٍ وليلةٍ. كلُّ ما يُحيطُ به يَبدو هرِماً... إبنَ أصلٍ فارقَهُ العِزُّ.

إلى جانبِ السّريرِ الحديديِّ القديمِ أَبصرَ إحدى بَناتِ البَيْكِ، عانساً فاتَها القِطارُ... وفي السّريرِ رأى البَيْكَ نَفسَهُ مُكوّماً كالفاصِنةِ، بَينَ الأغطيةِ الثّقيلةِ.

تُجرِّرُ: تَجرُّ شديداً أي بشدّةٍ.

ـ بصِحّتِكَ يا دُكتورُ...

أَعادَهُ إلى المائدةِ صَوتُ الشّابِّ الجالسِ مُقابِلَهُ... كبيرِ أولادِ البَيْكِ.

رَفعَ كأسَهُ بسُرعةٍ، وجرَعَ مِنْها بعضَ الشّرابِ، وعادَ يَنخرِطُ في مَجرى الحديثِ.

قصة

استحقّت عيشها

أن يُرزقَ المرءُ بِنتاً وهو يَتوقّعُ ولادةَ بِكرٍ ذكَرٍ، يَرِثُ اسمَ العائلةِ، ويَحمِلُه إلى أبعادِ المُستقبلِ، يُشكِّلُ في نَظرِ الجارِ أبي ناصيفٍ كارثةً كُبرى.

ولكنْ أن يتمادى الخالقُ العَليُّ في «كَرمِهِ» فيُكرِّرَ المأساةَ، وتولَدَ طِفلةٌ ثانيةٌ، فهذا حَدَثٌ تَعجزُ الكَلماتُ عَن وصفِهِ.

واحتقارُ الرَّجلِ لنَسلِ حوّاءَ عُموماً، نَتيجةَ فلسفةٍ خاصّةٍ به، يُوزِّعُه بالمُساواةِ عَلى إناثِ العائلةِ، ابتداءً مِن أمِّهِ، إلى زوجِهِ، وانتهاءً بآخرِ حبّاتِ العُنقودِ. ولا أعلمُ ما الأسبابُ الدّافعةُ إلى نَقمتِهِ هَذهِ، ولَن أُحاوِلَ الدُّخولَ في تحليلِ نَفسيّةِ الرَّجلِ، بَل أكتفي بسَردِ

الحكايةِ الَّتي شَغلَتْ سُكّانَ القَريةِ، وظَلَّتْ حديثَ النّاسِ رَدَحاً مِنَ الزّمنِ.

ولا بُدَّ، هُنا، مِنَ الاعترافِ بأَنَّ الجارَ لَم يَكُنْ يَنفرِدُ بهَذا المَوقِفِ المُتَزمِّتِ، بَل كانَ له في قَريتِنا أَمثالٌ، يَلتقونَ مِثلَهُ في **السُّخطِ** عَلى **سَليلاتِ** حوّاءَ، ويَعتبرونَ قُدومَهُنَّ إلى الكَونِ ضَربةً قاضيةً مِن ضَرَباتِ القَدَرِ **العَشواءِ**.

ولَكِنَّ الآخَرينَ كانوا يَتحمَّلونَ نَكَباتِهِم بصَمتٍ، خَوفاً مِن شَماتةِ الأعداءِ، و**وَجَلاً** مِن غَضَبِ **الباري**، وتَلقّي مَزيدٍ مِنَ الضَّرَباتِ إذا هُم عارَضوا الإرادةَ العُلْويّةَ!

ولَمْ تَكُنْ تِلكَ حالَ الجارِ. لقَدِ اعتادَ سَماعَ النّاسِ

السُّخطُ: عَدَمُ الرِّضى، الغضَبُ.

السّليلاتُ: مفرَدُها السّليلةُ وهِيَ البِنتُ، وسليلاتُ حوّاءَ: بناتُها اللَّواتي مِن سُلالتِها.

العشواءُ: العمياءُ، الّتي لا تُبصِرُ أمامَها.

الوجَلُ: الخوفُ

الباري: الخالقُ، اللهُ.

يُنادونَهُ أبو ناصيفٍ، مُنذُ فَتحَ عَينَيْهِ عَلى الوُجودِ. وهَذا تَقليدٌ عائليٌّ مَعروفٌ في كثيرٍ مِنَ القُرى، يُمارَسُ بَينَ الجِدِّ والدُّعابةِ. وبِما أَنَّ طبيعةَ الجارِ لَم تَكُنْ تَفسَحُ مَجالاً للمُعابَثةِ، فقَدْ باتَتِ الكُنْيَةُ أَلصقَ بِه مِن جِلدِهِ. ولِكَي يُحقِّقَها جَسديّاً بَحثَ عَن شريكةِ حياةٍ تُقاسِمُه لُقمةَ العَيشِ، وتُنجِبُ له «وَليَّ العَهدِ» المنتظَرَ. وانتقلَ دُعاءُ النّاسِ، بعدَئِذٍ، مِنَ التّمنِّياتِ له بالفرحةِ الكُبرى إلى الرّجاءِ أَن يَرزقَهُ المَولى «عريساً»، أي ولداً ذَكَراً، يُحقِّقُ الكُنيةَ.

وكانَتِ السّعادةُ تَملأُ صَدرَهُ وتُشرِقُ مِن عَينَيْهِ وهو يَسمعُ هَذا الدُّعاءَ، فيَرُدُّ عَلى جُلَسائِهِ بِبَهجةٍ يَشوبُها الكثيرُ مِنَ التَّحدّي:

ـ هو فيه غَيْرْ ناصيفْ؟

المُعابثةُ. المداعَبةُ والملاعَبةُ.
الكُنيةُ. اسمٌ يُعلَّقُ على الشّخص علامةً عليْه.
يَشوبُها. يُخالطُها.

وكانَتْ زَوجتُه، وهِي تَسمعُ كَلِماتِهِ المُتمرِّدةَ وتُراقبُ بطنَها يَزدادُ انتفاخاً، تَخنُقُ **جَزَعَها** مِن إمكانيّةِ تَخييبِ آمالِه.

وقَدْ خَيّبَتْ أملَهُ بالفعلِ، ودفعَتْهُ إلى هَجرِ المَنزلِ، وقضاءِ ليلِه في دارِ قريبٍ له. ولَمْ يَعُدْ في اليومِ التّالي إلّا بعدَما تَوجَّهَ إليْهِ وَفدٌ مِن أبرزِ شَخصيّاتِ القَريةِ.

بعدَ ذلكَ صارَ الحَمْلُ، بالنِّسبةِ إلى الزّوجةِ المِسكينةِ، «بُعبُعاً» يُثيرُ الرُّعبَ في صَدرِها، و**تَرتعِدُ** له **فَرائصُها**، خصوصاً أنَّ طِباعَ الزّوجِ كانَتْ تَزدادُ سوءاً معَ مرورِ الأيّامِ؛ ولَمْ يَستطِعْ وَجهُ الزّائرةِ الصّغيرةِ، علَى ما يَحمِلُه مِن براءةٍ وحلاوةٍ، أَن يَخترِقَ جِدارَ الفولاذِ الّذي أَقامَهُ الرّجلُ حولَ كِيانِه.

وكَبِرَتِ الطِّفلةُ، وبَدأَتْ **تَحبو**، ثُمَّ تَسيرُ وتَضحكُ

الجزعُ: الحُزنُ.

ترتعدُ: ترتجفُ وتضطربُ.

الفرائصُ: مُفردُها الفريصةُ وهي لَحمةٌ بين الجنبِ والكتفِ ترتجفُ عند الخوفِ.

حَبا الطّفلُ: زَحفَ على يدَيْهِ وبطنِه (دَبْدَب بالعامّيّة).

وتلعبُ. وكانَ الأبُ، كُلَّما شعرَ بعَينَيْها الصّغيرتَيْنِ تَتصَبّانِ عَلى نُقطةٍ مِن دِرعِهِ الواقيةِ، وتُحاولانِ اختراقَها إلى قلبِهِ، يَهرُبُ مِنْها إلى الحقولِ، أو إلى زيارةِ الأصحابِ، كَيْلا يَضعُفَ أمامَها، ويَستجيبَ لدَواعي العاطفةِ الأَبَويّةِ، فيَتحلّى عَن تَزمُّتِهِ.

وكانَتِ الزَّوجةُ واقعةً بَينَ شَرَّيْنِ: فهِي تَخشى أن تَلِدَ ابنةً ثانيةً، ولَكِنَّها لا تَجرؤُ عَلى التّخلُّصِ مِنَ الحَمْلِ، قَبلَ أَن تُنجِبَ ناصيفاً المنتظَرَ!

وهَكذا بَدأَتْ أشهُرَ حَمْلِها الثّاني. وعاشَتْ أيّاماً مِنَ التَّوقُّعِ القَلِقِ. ولَمْ تَكُنْ تُخفي عَن جَدَّتي ما يَعتمِلُ في نَفسِها، فكانَتِ العجوزُ تُطيِّبُ خاطرَها، وتُؤمِّلُها برَحمةِ اللهِ.

وذاتَ يومٍ **هَرعَتِ** الجارةُ إلى مَنزلِنا، حافيةَ القَدمَيْنِ، مَنبوشةَ الشَّعرِ، والدّموعُ تَغسِلُ وَجهَها، فتَعلَّقَتْ بالجَدَّةِ وراحَتْ تَهزُّها، وتَرجو منها أن تَحميَها. لقَدِ

هَرَعَ: مشى باضطرابٍ وسُرعةٍ.

اقتربَتِ السّاعةُ الرّهيبةُ، وبدأَتْ آلامُ المَخاضِ!

أَعادَتْها العجوزُ إِلى دارِها، وأَرسلَتْ مَن يَدعو القابلةَ، ثُمّ نادَتْ بعضَ نساءِ الحيِّ ليَحضُرْنَ الولادةَ، كما هِيَ العادةُ. وأَمّا أبو ناصيفٍ فقَدْ تَوَلّى الرّجالُ أَمْرَهُ، إِذْ تَحلَّقوا حَولَهُ **يُسامرونَهُ** رَيْثَما تَتِمُّ الولادةُ.

وكانَ هو حاضراً بَينَهُم بالجَسدِ، غائباً بالعقلِ والرّوحِ. وبَدَتْ نَظَراتُه **زائغةً**، ولَمْ تَعُدْ كَلِماتُه تَجدُ لها مَخرجاً، فظَلَّتْ **تُحَشرِجُ** طَيَّ صَدرِهِ المُظلِمِ بضَبابِ الفِكَرِ السّوداءِ.

مَضَتْ ساعاتٌ، وصُراخُ الزّوجةِ يَنطلِقُ معَ عويلِ العواصِفِ في تِلكَ اللّيلةِ الشّتائيّةِ الغاضبةِ. وأخيراً صَمتَتِ المرأةُ، وسُمِعَ صُراخٌ آخَرُ، صُراخُ المولودِ الجديدِ يُعلِنُ عَن قُدومِهِ. وصَمتَتِ النّساءُ؛ ولَفَّتِ السّكينةُ الرّجالَ، وانتَظَروا أَن تَخرجَ واحدةٌ مِنَ

يُسامرونَهُ: يُحدِّثونَهُ ليلاً.
زائغةً: شاردةً ومُضطربةً.
تُحشرِجُ: تَتردَّدُ.

النِّسْوةِ حامِلةً البشارةَ. ولَكِنَّ هَذا لَم يَحدُثْ. ولَمْ يَعُدِ الرَّجلُ يُطيقُ صبراً، فهَرعَ إلى غُرفةِ زَوجتِهِ، واستقبلَتْهُ بِنْظَراتُها **الواجفةُ**، ودموعٌ غزيرةٌ تَفورُ مِن عَينَيْها. لَم يَنظُرْ إلَيْها. كانَتْ عَيناهُ مِثلَ عَينَيْ وَحشٍ هائجٍ يَبحثُ عَن فريسةٍ. ووَقعَتْ يَداهُ عَلى ضالَّتِهِ، عَلى المَولودةِ الجديدةِ، بَينَ يَدَيِ القابلةِ. سَحَبَها مِنْها وأَسرعَ إلى نافذةٍ تَرتفعُ بِضعةَ أمتارٍ عَن مُستوى الطَّريقِ، ثُمَّ قذفَها إلى الخارجِ، بكُلِّ قوَّتِهِ.

حَجبَتِ العَواصفُ صُراخَ المخلوقةِ العاجزةِ، وارتفعَتْ جَلَبَةُ النّساءِ؛ وكانَتْ جَدَّتي أَسبقَهُنَّ إلى التَّحرُّكِ، فرَكضَتْ إلى الطَّريقِ، ولَفَّتِ الطِّفلةَ في حِضنِها، ثُمَّ حَملَتْها إلى دارِها. ولَمّا تأكَّدَتْ لها سَلامتُها تابَعَتْ عمليّةَ الإسعافِ اللّازمةَ مِن غَسلٍ وتَدفئةٍ، بَينَما اهتمَّتِ النِّسوةُ الباقياتُ بالأُمِّ المُغمى عَلَيْها.

الواجفةُ: المُضطرِبةُ.



أمّا الأبُ فقَدْ **توارى** عَنِ الأنظارِ. وطالَ احتفاؤه هَذهِ المرّةَ، خَوفاً مِن مُواجَهةِ القانونِ والعدالةِ الأرضيّةِ، إذِ اعتقدَ أنَّهُ قَضى عَلى المولودةِ ولَمْ يَبقَ أمامَهُ سِوى السّجنِ أو حَبلِ المِشنقةِ.

كَيفَ عادَ؟ لا أدري. الجدَّةُ الَّتي سَردَتْ لي هَذه الحكايةَ عَلى دُفُعاتٍ، لَم تَعتبرْ عَودةَ الرَّجلِ مُهِمَّةً، لِذا رَكّزَتْ روايتَها عَلى الشَّخصيّةِ الرّئيسةِ، عَلى حياةَ، الطِّفلةِ الَّتي أنقذَتْها مِنَ الموتِ واختارَتْ لها الِاسمَ، وتَولَّتِ العنايةَ بها، والوصايةَ عَلَيْها في السّنواتِ التّاليةِ، فكانَتْ لها أمّاً بالرّوحِ.

وبَقِيَتْ حياةُ تَعيشُ في ظِلِّ الحدَثِ الَّذي رافقَ وِلادتَها، فتُحاوِلُ التّمرُّدَ عَلَيْهِ، يُسعِفُها في هَذا جسدٌ مُمتلئٌ فارِعُ الطّولِ، يَضِجُّ فُتوّةً وعافيةً.

لَم تَكُنْ بَينَ فَتياتِ القَريةِ مَن **تُضاهيها** جَمالَ شَكلٍ، وحيويّةً. وكأنَّها، بوُجودِها المُعافى، كانَتْ تَتحدّى

توارى: احتفى.
تُضاهيها: تُشبِهُها وتُشاكِلُها.

إِرادةَ والدِها، وتَنتصرُ لسِرِّ الحياةِ العظيمِ.

وقَدْ حَقّقَتِ السّنواتُ التّاليةُ لنجارٍ أُمنيّتَهُ العاليةَ، فوُلدَ للأُسرةِ رمزُ الشّرفِ والخُلودِ، وُلدَ لها ناصيفٌ!

وكانَتِ الفَرحةُ بقُدومِهِ عظيمةً، أَشعلَها الأبُ المُغتبِطُ، وانتقلَتْ عَدْواها إِلى الجيرانِ وسائرِ المُواطنينَ، فأَقبَلوا عَلى دارِهِ حاملينَ الهدايا والتَّهانيَ. ومَسَحَتِ الفَرحَةُ ذِكرى الحادثةِ الغريبةِ، وكادَ الجميعُ يَغفِرونَ للرَّجلِ خطيئتَهُ، ويتناسَوْنَ فِعلتَهُ، وينصرفونَ عَن شؤونِهِ إِلى تَتبُّعِ أحداثٍ أُخرى. ولَكِنَّ الإرادةَ العُلويّةَ شاءَت أَن تُثبِتَ وُجودَها، وتُذكِّرَ الأبَ الجانيَ أَنَّ مَن يَأكلُ الحِصرمَ لا بُدَّ أَن يَضرَسَ؛ وكأَنَّ تِلكَ الإرادةَ اختارَتِ الرَّجلَ لتَجعلَهُ عِبرةً لمَن يَشاءُ أن يَعتبِرَ، أَو إِنَّها أَرادَتْ أَن تُؤَدِّبَ الجميعَ بشخصِهِ، فوَهَبَتْهُ ذَكَراً مَسلوبَ العافيةِ ناحلَ البُنْيةِ، لا يَمُتُّ بصِلةِ قُربى إِلى أُختِهِ الفتاةِ القويّةِ، **الفائرةِ** بالحيويّةِ والنّشاطِ.

العائرةُ: الدّافقةُ.

وكانَ النّاسُ يُلاحظونَ الفارقَ الشّاسعَ بينَ الطِّفلَيْنِ، ويَهزّونَ رؤوسَهُم وهُم يُردِّدونَ: «هَكذا تَنتقِمُ الحياةُ مِمَّن يُحاوِلُ أَن يَعصى **ناموسَها**»؛ أَو: «كلُّ طَلعةٍ تُقابِلُها نَزلةٌ»، وأَقوالاً أُخرى كثيرةً. وأمّا هو فلَمْ يَكُنْ يُعيرُ تِلكَ الأَقوالَ أَيَّ اهتمامٍ. يَكفيه أَنَّ العارَ قَد غُسِلَ، وأَنَّ الاِسمَ لَم يَبقَ بِلا مُسَمّى!

كانَتْ ذاكرةُ جَدَّتي حافلةً بالحكاياتِ، تَسرُدُها لنا في أُوَيقاتِ الصّفاءِ وليالي الشّتاءِ. وكُنّا لا نَشُكُّ في كَلمةٍ مِن أَقوالِها، ونُصدِّقُ حَتّى الأساطيرَ الَّتي تَروي مُغامراتِ «الشّاطِرِ حَسنٍ» و«الطّائرِ الأخضرِ». وقَدْ ظَلَّتْ حكايةُ الجارِ أَغربَها جميعاً، لأَنَّهُ كانَ يَسهُلُ عَلَيْنا أَن نَربِطَ الأَحداثَ بالشّخصيّاتِ الحيّةِ المتحرّكةِ حَولَنا. وكانَتْ حياةُ رفيقتَنا، تُشارِكُنا في اللَّعِبِ بَينَ الأَزقَّةِ، وتَتفوّقُ عَلَيْنا في الرّكضِ والصُّراخِ والشَّيطناتِ الصِّبيانيَّةِ. بَل إِنَّ تَصرُّفاتِها وحَركاتِها ظَلَّتْ أَقرَبَ إِلى

النّاموسُ: القانونُ والشّريعةُ.

تَصرُّفاتِ الفِتيانِ وحَركاتِهِم مِنْها إلى خَفَرِ الأُنوثةِ القَرويّةِ. وفي يَقيني أَنّها كانَتْ تَلقى تشجيعاً كبيراً مِن والدِها الّذي ظَلَّ يَرفُضُ الواقعَ، والاعترافَ بوُجودِ إناثٍ مِن نَسلِهِ.

... ومَرّتِ الأيّامُ، وانزَلَقتِ السّنواتُ، فحَملَتْني بعيداً عَن قَريتِنا الوادعةِ، وعَنِ الحكاياتِ المزروعةِ معَ آثارِ أقدامِنا فَوقَ الدُّروبِ وفي السّاحاتِ. وحينَ عُدْتُ قَبلَ أيّامٍ لزيارةِ الأهلِ، لاحَظْتُ أَنَّ تَحوُّلاً جَذريّاً قَد طَرأَ عَلى حياةِ النّاسِ واهتماماتِهِم، وهو ليسَ التّغيُّرَ الطّبيعيَّ الّذي يَفرِضُه مُرورُ الزّمنِ: كانَ تَبدُّلاً فَرضَتْهُ الحربُ الّتي حَوّلَتْ قَريَتَنا، وسائرَ قُرى الحُدودِ الجَنوبيّةِ، إلى خطِّ نارٍ دائمِ التّأَجُّجِ.

وجَلسْنا في العشيّةِ، كما كُنّا نَجلِسُ في أَوقاتٍ مَضَتْ. ولكِنَّ الأيّامَ تَبدَّلَتْ، ومعَها الحكاياتُ. ولَمْ تَكُنِ الجَدَّةُ حاضرةً بَينَنا في تِلكَ الجَلسةِ. لَقَدْ سافرَتْ

اليَقينُ: المعرفةُ الثّابتةُ والأكيدةُ.

التّأجّجُ: الاشتِعالُ.

في الرِّحلةِ الكُبرى، كَيْلا تُبصِرَ عَيناها الطَّيِّبتانِ دمارَ الأرضِ الَّتي أَحبَّتْها بكُلِّ ذَرَّةٍ مِن كِيانِها. وهَكَذا لَم تَكُنِ الحكاياتُ عَن أساطيرَ ومُعجِزاتٍ وَقعَتْ في زمانٍ غابرٍ، بَل تَناولَتِ الأحداثَ الحاليّةَ، الَّتي يَعيشُها الشّيوخُ والأطفالُ، والنِّسوةُ والشّبابُ، وهُم مُتمسِّكونَ بأرضِهِم ومَساكِنِهِم، بكُلِّ ذَرَّةِ ترابٍ غَرسوها مِن حبّاتِ صدورِهِم، وسَقَوها عَرقَ السّواعدِ ودموعَ العيونِ. وانبَرى أَحدُ الشّبابِ يَطرحُ عَليَّ سؤالَهُ:

ـ هَل أَخبروكِ عَن حياةَ؟ حياةَ بنتِ بو ناصيفٍ؟

وعَقِبَ السّؤالَ صمتٌ حاولَتْ إِحدى الثّرثاراتِ أَن تَخرُقَهُ بتَعليقِها:

ـ لَو كانْ بو ناصيف عارفْ شو بَدّو يِطْلَعْ مِنْ هالبِنْت، ما كانْ رَماها مْنِ الشِّبّاكْ.

أَسكتَها تعليقُ صَبيّةٍ مثقّفةٍ:

العابرُ: الماضي.

إنْبرى: شَرَعَ، بَدأَ.

عقبَ: تلا، جاءَ بعد.

ـ وهَذا يُؤكِّدُ أنَّ المَرأةَ لَم تَعُدْ وَصمةً. لَم تَعُدْ عالةً عَلى الرَّجلِ، بَل صارَتْ تُساويهِ، وتَتفوّقُ عَليْهِ في بعضِ الأحيانِ. وحياةُ أكبرُ دليلٍ على هَذا.

وتابعْتُ، خلالَ اللّحظاتِ التّاليةِ، التقاطَ بَقيّةِ الحكايةِ: حينَ تَعرّضَ العَدوُّ لِقَريتِنا بالهجومِ، هَبَّ الرِّجالُ، بما لدَيْهِم مِن سلاحٍ، يُدافعونَ عَن شرفِهِم وأرضِهِم. ولَمْ يَكُنْ في دارِ أبي ناصيفٍ رَجلٌ يَحمِلُ السّلاحَ: فابنُه الوحيدُ نصفُ إنسانٍ، وهو مُقعَدٌ بسببِ العجزِ والمرضِ. والابنةُ الكُبرى تزوّجَتْ وهاجرَتْ مُنذُ سنواتٍ. أمّا حياةُ فقَدْ رفضَتِ الزّواجَ، وبَقيَتْ تَعملُ في التّدريسِ، لتُعيلَ أُسرتَها. ولَمّا وَقعَتِ الغارةُ كانَتْ مُستعدّةً، فحَملَتِ السّلاحَ لتُدافعَ عَنِ الأرضِ؛ وأَبدَتْ شجاعةً أثارَتْ إعجابَ مُواطِنيها، وحَرّكَتْ تيّاراً جديداً في صُفوفِ النّساءِ، إذْ أصبحَتْ رائدةً

الوَصمةُ: العَيبُ والعارُ.
العالةُ: الفاقةُ، مصدرُ الفقرِ والهَمّ.
تُعيلُ أُسرتَها: تكفيها معيشتَها.



لروحٍ ثَوريّةٍ كانَ لا بُدَّ مِنِ **انبثاقِها** وأَقدامُ الأعداءِ **تُدنّسُ** شرفَ أرضِنا. ولَمْ تَكتفِ بنَشرِ دَعوتِها في قريةٍ واحدةٍ، بَل راحَتْ تَنتقِلُ بَينَ القُرى، وتَدعو النّساءَ إِلى نَفضِ **الخُمولِ**، والخُروجِ عَلى التّقاليدِ الباليةِ الّتي أَبقَتْهُنَّ عُنصراً سلبيّاً لا يُشارِكُ في مصيرِ الأمّةِ.

ـ وأبوها، ماذا يَقولُ؟

طَرحْتُ سؤالي في الهواءِ، وأنا أُدغدِغُ فَرْحةً سَرَتْ في **أوصالي**، وأُفكِّرُ: «أخيراً تحرَّكَتِ المرأةُ في قُرانا».

وتَطوَّعَ شيخٌ جليلٌ للرّدِّ عَلى سؤالي:

ـ لا تَلومي أَبا ناصيفٍ يا ابنتي. لَم يَكُنْ يَعرِفُ أَكثرَ مِن ذَلكَ. كانَ مِثلَنا، يَسيرُ في الخطِّ التّقليديِّ، ويَعتبِرُ القُشورَ جَوهرَ الأشياءِ. ويَدُه الّتي امتدَّتْ لتَقذِفَ فِلْذَةَ كَبدِهِ مِنَ النّافذةِ كانَتْ مَدفوعةً بإرادةِ أَجيالٍ مضَتْ،

الانبثاقُ: الصُّدورُ والظُّهورُ.
تُدنّسُ: تُلطّخُ بالقُبحِ والشّرِّ والعارِ.
الخُمولُ: الضّعفُ والكَسَلُ.
الأَوصالُ: الأعضاءُ.

أَجيالٍ مِنِ استعبادِ المرأةِ، واستِضعافِها، والِاستِخفافِ بإمكاناتِها. وكانَ لا بُدَّ مِن حَدَثٍ مُهِمٍّ لتَتحرّكَ المرأةُ وتُقاوِمَ، لتَتحدّى وتُناضِلَ. مَثلُها مَثَلُ الشّعوبِ المغلوبةِ عَلى أَمرِها، تَنتظِرُ في اللّاوَعْيِ ضَربةَ الغَيبِ لتَنتَفِضَ وتَثورَ لإرادةِ الحياةِ.

وقَذْفُ الطِّفلةِ مِنَ النّافذةِ جَعلَها تَحيا في تَحَدٍّ نَراهُ اليومَ يُعطي ثمارَهُ. لقَدْ بَرهَنَتْ للرَّجلِ أَنَّها تَستحقُّ العيشَ، واليومَ **جاوزَتْ** هَذا المَنطِقَ لتُعلِنَ لنا جميعاً أَنَّ أُسطورةَ المرأةِ الضّعيفةِ قَدِ انطوَتْ، سَحقَتْها إرادةُ الحياةِ.

جاوزَتْ: تَعدَّتْ وتَركَتْ خَلفَها.

قصة

البُعْدُ جَفاءٌ

كانَتْ جَدَّتي تَرى في إقبالي عَلى التَّعلُّمِ حَسَنَةً واحدةً، هِي تَمكُّني مِن كتابةِ الرّسائلِ!

فهِي لَم يَسمَحْ لها زمانُها أَن تَتعلَّمَ؛ ومعَ أَنَّ اللُّغةَ كانَتْ **طَوْعَ لسانِها**، تَنساقُ إِلَيْها بسُهولةٍ، وتُساعدُها عَلى التّعبيرِ عَن فِكَرِها في أبياتٍ زَجَليّةٍ مؤثِّرةٍ، وقِصصٍ جذّابةٍ طالَما أَسَرتْ **ألبابَنا** صِغاراً، ومَلأَتْ لياليَ الشّتاءِ **الباهتةَ** بالإشراقِ والانتعاشِ، إلّا أنَّها ظَلّتْ تَجهلُ قراءةَ تلكَ اللُّغةِ أَو كتابتَها. وهَذا يَعني أنَّها كانَتْ عاجزةً عَن

طَوْعَ لسانِها: تُطيعُ لسانَها أي يسهُلُ عليها الكلامُ واللُّغةُ.

الألبابُ: مفردُها اللُّبُّ وهو العقلُ أَوِ القلبُ.

الباهتةُ (بالعاميّة): الفاقدةُ للحركةِ والحيويّةِ والإشراقِ. الباهتةُ (بالفصحى): المدهوشةُ، السّاكتةُ متحيّرةً.

تَحبيرِ الرّسائلِ إِلى ابنتِها المُغتربةِ.

وهَكذا كُنْتُ أَلقى مِنْها تَشحيعاً خاصّاً للمِضيِّ في صُحبةِ الكُتبِ، لأَنَّها كانَتْ تُعوِّلُ عَليَّ لأُصبحَ لسانَ حالِها، وهَمزةَ الوَصلِ بَينَها وبَينَ المُهاجِرةِ العزيزةِ.

وأَعترفُ الآنَ، وبَعدَ مُرورِ سنواتٍ طويلةٍ عَلى تِلكَ الخُطُواتِ المُتعثِّرةِ لقَلَمي، أَعترفُ بفَضلِها عَلى هَذا القَلَمِ بالذّاتِ.

كانَتْ تُجلِسُني بقُربِها كلَّ يومٍ، في يَدي ورَقةٌ بيضاءُ وقلَمٌ مُستعدٌّ، ثُمَّ تَروحُ تُملي عَليَّ الرّسالةَ بأُسلوبٍ عَفْويٍّ وكأَنَّها تُخاطبُ شخصاً منظوراً.

وقَلَّما كانَ لسانُها يَتعثَّرُ، لأَنَّ عباراتِها كانَتْ تَفورُ مِن بئرٍ عميقةٍ تَنطوي عَلَيْها أَضلاعُ صَدرٍ مُحِبٍّ.

وقَبلَ أَن أَعمَدَ إِلى طَيِّ الرّسالةِ، وكتابةِ العُنوانِ، كانَتْ تَربِطُني لجَلسةِ اليومِ التّالي.

وأَذكُرُ عِبارةً واحدةً كانَتْ تَتكرّرُ في كلِّ رسالةٍ: «بُنيّتي، لا تَدَعي الغُربةَ تُنسيكِ أُمّكِ، تَعالَيْ لتُبصِرَكِ

حبَّرَ الكلامَ: حسَّنَهُ وزيَّنَهُ، خطَّهُ بالحِبرِ.



عَينايَ قَبلَ مُغادَرةِ الحياةِ».

وكانَتِ العِبارةُ تُخيفُني، وتَدفعُني إِلى الاعتقادِ بأَنَّ الموتَ للجَدّةِ **بالمِرصادِ**، ورُبَّما فاجأَها قَبلَ وصولِ الرّسالةِ. وباتَتْ أَبسَطُ **وَعكةٍ** تَحِلُّ بها تؤَرِّقُني، وتَشغَلُ بالي، وتَجعلُني أَتوقَّعُ أَسْوأَ الحالاتِ.

ولَكِنَّ اللهَ أَمدَّ بِحياتِها، فعاشَتْ عُمرَها كاملاً. ولَمّا وافاها الأَجَلُ كانَتِ الحياةُ قَد حَقّقَتْ لها الكثيرَ مِن أُمنيّاتِها، ما عَدا أُمنيّةً غاليةً ظَلَّ تحقيقُها رَهْناً بمشيئةِ الابنةِ.

وبعدَما كَبِرْتُ كُتبَ لي أَن أَهجُرَ حِضنَ الجدّةِ في قَريتِنا الصّغيرةِ لأُقيمَ في «بيروتَ». غَير أَنَّ زياراتي إِلَيْها لَم تَنقطِعْ، وكُنْتُ أَعودُ مِن كلِّ زيارةٍ مُحمَّلةً بالوصيَّةِ نَفسِها: «اكتُبي إِلى خالتِكِ، وقولي لها عودي».

ولَمْ أَكُنْ أَلْمُسُ مِنَ الخالةِ ما يُشجِّعُ على المضيِّ في تِلكَ الطِّلْبةِ. إِنَّها مُتعلِّقةٌ بزَوجِها وأَولادِها وحياتِها

المرصادُ: مكانُ التَّرقُّبِ.

الوعْكةُ: المرضةُ.

الَّتي لَم نَعُدْ نعرفُ عَنْها سِوى الوَجهِ المُختصَرِ الَّذي تَحمِلُه الرّسائلُ.

ولَمّا كَبِرَ الأَولادُ، وتَزوَّجوا، واستَدعى اللهُ الزَّوجَ إِلَيْهِ، وباتَتِ الخالةُ وحيدةً في دارِها، فكَّرْنا أَنَّ هَذا التَّغيُّرَ الَّذي طَرأَ عَلى حياتِها سَوفَ يَدفعُها إِلى زيارةِ الوطنِ، ومُشاهدةِ الأمِّ، ولَكِنَّها لَم تأْتِ.

ولَمْ يَنقطِعْ حبلُ الأَمَلِ، ولَم **يَنفَدْ** صَبرُ الجَدّةِ. هِيَ تَعرفُ ابنَتَها الصَّبيَّةَ السّمراءَ الحُلوةَ، الَّتي هاجرَتْ بَينَ ذِراعَيْ عريسٍ مُغتربٍ. تَعرفُ محبَّتَها ووفاءَها. والمُغترِبونَ العائدونَ كانوا يَمتدِحونَ تِلكَ الصِّفاتِ بالذّاتِ، ويُشيدونَ بسَخاءِ الخالةِ، و**حَدْبِها** عَلى الغُرباءِ، وتَشريعِ بابِها لِكُلِّ **مَلهوفٍ**. هِيَ مِن صِنفِ النّساءِ اللَّواتي لا يَعرفْنَ سِوى المَحبّةِ والتّضحيةِ. أَوَلَيسَ مَنطِقيّاً أَن تُوجِّهَ بعضَ عَطفِها صَوبَ والدتِها، سببِ وُجودِها؟

نفد يَنفَدُ الشّيءُ: فرغ وانقطع وفني وزالَ.

الحَدبُ: التّعطُّفُ.

الملهوفُ: المتحسِّرُ، الَّذي في قلبه حُزنٌ على ما فات.

وماذا عَنِ الأيّامِ الأخيرةِ؟ أَوَلَمْ تَسمعِ المُغتربةُ الوَفيّةُ بما يَجري حَولَ قَريتِها الصّغيرةِ عندَ الحُدودِ الجَنوبيّةِ؟

بَلى. لقَدْ سَمعَتْ كلَّ شيءٍ. العالَمُ كلُّه سَمعَ أخبارَ ذَلكَ القِطاعِ المغمورِ، والّذي لَم يَكُنْ في الماضي يَعني أَحداً سِوى المُقيمينَ فيهِ.

وكانَتِ الأيّامُ الأخيرةُ، وسُلِّطَتْ أَضواءُ الكَونِ على القَريةِ الوادعةِ، قَريةِ السّنديانِ والصَّنوبَرِ والزَّيتونِ، المُستظِلَّةِ بأَعطافِ جَبلِ «حَرَمونَ».

وحَسِبْنا أَنَّ الأَوضاعَ السّياسيّةَ ستُبدِّلُ هُبوبَ الرّيحِ بالنِّسبةِ إِلى قضيّتِنا الصّغيرةِ! خُصوصاً بَعدَما أَلَمَّتْ بالسّيِّدةِ العَجوزِ وَعكةٌ أَقعدَتْها بالفراشِ، وسَبَتْها قِسطاً وافراً مِن حَيَويّتِها.

ولَكِنَّ الحياةَ رحيمةٌ؛ فقَدْ فَسَحتِ المَجالَ، وللمَرّةِ الأَخيرةِ، أمامَ الابنةِ، لتَعودَ إِلى حِضنِ أُمِّها.

القِطاعُ: المُقاطَعةُ، المَنطقةُ.

أَلَمَّ بِهِ: أَصابَهُ.

وطبيبُ القَريةِ بَذلَ كلَّ ما في وَسعِهِ مِن أَجْلِ شِفاءِ الجَدَّةِ. ونَجحَ فِعلاً، فعادَتْ تَتنقَّلُ في جوانبِ المنزلِ مِثلَ الغزالةِ، وبَدَت عَلى وَجهِها في تِلكَ الآونةِ القصيرةِ إشراقةٌ غريبةٌ، كانَ نورُها يَزدادُ كُلَّما حَدَّثوها عَن إمكانيّةِ عَودةِ ابنتِها... واعتقدَتِ المِسكينةُ أَنَّ المرضَ سيكونُ حافزاً قويّاً يَهُزُّ جذورَ المُغترِبةِ، ثُمَّ يَقتلِعُها، ويَرميها في حِضنِها. وقَدْ ذَكرَتْ لي، أثناءَ زيارتي الأخيرةِ لها، أَنَّ العنايةَ الإلهيّةَ أَنقذَتْها مِن تِلكَ الوَعكةِ اللّئيمةِ لتُحْييَها أيّاماً معدودةً، رَيْثَما يَتسنّى لِلابنةِ الغاليةِ أَن تَحزِمَ حقائبَها وتَطيرَ إِلَيْها.

أَذكُرُ جَلستَنا تِلكَ بوُضوحٍ: كانَ الجوُّ مُكَهرَباً بأخبارِ الحربِ، الزُّوّارُ في القاعةِ مُنشغِلونَ بآخِرِ ما سَمعوا مِنَ المِذياعِ وما قَرؤوا في الصُّحفِ. وكُنْتُ أنا لاصقةً بها، عَلى طَرَفِ السّريرِ الّذي لَم تَعُدْ تَستطيعُ مُبارَحَتَهُ. لاحَظْتُ نُحولَ جسمِها الّذي تَقلَّصَ وتَحوَّلَ إِلى حَفنةِ عِظامٍ يَلُفُّها جِلدٌ شفّافٌ. غَير أَنَّ ذِهنَها ظَلَّ

تَسنّى الأمرُ: تَهيّأ وتَيسّرَ.

صافياً، وأقوى مِن لسانِها الّذي راحَ يَتعثّرُ، ولأوّلِ مرّةٍ في حياتِها.

أَجلسَتْني كما كانَتْ تَفعَلُ أيّامَ الطّفولةِ، وراحَتْ تُملي عَليّ رسالةً مُستعجَلةً. وبَدَتْ لعَيني أشبهَ بمُسافرٍ يَخشى أن يَسبِقَهُ القِطارُ، فيُسارعُ إلى إيداعِ مَن حَولَهُ وصاياهُ المُهمّةَ... وكانَتْ أغلى وصيّةٍ: تحبيرَ رسالةٍ إلى الابنةِ فيها الدّعوةُ المُعتادةُ لعَودةٍ.

وقَدْ حبّرْتُ تِلكَ الرّسالةَ في اليومِ التّالي، ولَمْ أُضمّنْها الوصيّةَ، إذْ لَم تَعُدْ هُناكَ حاجةٌ إلَيْها.

لقَدْ رَحلَتِ العجوزُ الطّيّبةُ! وكانَتْ، خِلالَ تِلكَ الجَلسةِ، تَشعرُ مُسبّقاً بقُربِ مَوعِدِ الرّحيلِ، فمَضَتْ تُصارِعُ في سبيلِ البقاءِ، مُستبدةً إلى خَيطِ أمَلٍ واحدٍ يَشُدُّها إلى الوُجودِ.

قالَتِ الخالةُ في جوابِها عَن رسالتي:

«تَتساءلينَ لماذا لَم أَعُدْ قَبلَ فواتِ الأوانِ... لا أَستطيعُ تَحديدَ سببٍ بالذّاتِ، فأنا لَم أَكُنْ سيّدةَ قَدَري...

«يَدُ القَدَرِ ساقَتْني إِلى هَذهِ الدُّنيا الغريبةِ مُنذُ خَمسينَ سنةً، فبَنَيْتُ فيها ارتِباطاتي، وأَقَمْتُ أُسُسَ عالَمي الجديدِ، وباتَ مِنَ الصَّعبِ الخروجُ وقَطعُ الأسلاكِ الخَفيّةِ الَّتي تَشدُّني إِلى الحاضرِ.

«يَصعُبُ عَلى بعضِ النّاسِ القَفزُ مِن فَوقِ شَبَكةِ الزَّمنِ، والعَودةُ إِلى الماضي. لِنَقُلْ هَذا هو سببُ تَخلُّفي عَنِ القيامِ بزيارةِ أمّي.

«أمّا الآنَ، وأنا أَشعُرُ أَنَّ الكَونَ قَد فَرَغَ مِنْها، فأَعترفُ بأَنّي نادمةٌ، تِلكَ النَّدامةَ الَّتي لا تَمحو الخطأَ ولا تَجْبُرُ ما انكسرَ.

«يا عزيزتي، في قَريتِنا كانوا يُردِّدونَ: البُعدُ جَفاءٌ... أَستحلِفُكِ بأَعزِّ أحبابِكِ أَن تُصْدِقيني القولَ: هَل كانَ هَذا رأيَ أمّي؟».

الجَفاءُ: ضِدُّ المؤانَسةِ والوِصالِ والتّقارُبِ.

قصة

فَرْحــانُ

أَبصَرْتُه أَمسِ، بَينَما كُنْتُ أجتازُ أَحدَ شوارعِ العاصمةِ... فَرحانُ، ابنُ السِّتِّ كاتْرينا.

كانَ يَرتدي بِذلَةَ الوظيفةِ، ويُطلِقُ صَفّارتَهُ إشارةَ مُرورٍ. بَدا لعَينيَّ أَشبَهَ بأميرٍ يَتحكَّمُ بمَصيرِ **العِبادِ**.

كانَ يَرفعُ رأسَهُ **باعتدادٍ**، ويَقفُ وِقفةً مُنضبطةً عَجِزَتْ عَن إخفاءِ **تكويرةِ كَرشِهِ**، و**تَهدُّلِ قَوامِهِ**.

لَمحةٌ خاطفةٌ، كَم تُثيرُ مِن ذِكرياتٍ! فَرحانُ، الطِّفلُ المُدلَّلُ، وحيدُ أمِّهِ... فَرحانُ، وَجهُه المُورَّدُ، وخَدّاهُ

العبادُ: النّاسُ.

اعتدَّ بنفسه: تشوّفَ والتفتَ إلى نفسِه التفاتةَ ادّعاءٍ وتكبُّرٍ.

تكويرة كرشِه: التفافُ بَطنِهِ واستدارتُه.

تَهدُّلِ قوامِهِ: استرخاءُ قامتِه.

المُنتفِخانِ، وأنفُه **المُفَلْطَحُ**، وشَفتاهُ الثّقيلتانِ.

كانَتْ شَفتاهُ ثقيتَيْنِ بِكُلِّ ما تَحملُ الكَلِمةُ مِن مَعنىً... لَم تُعيناهُ في النُّطقِ حَتّى السّنةِ الخامسةِ مِن عُمرِهِ. وظَلَّ جِسمُه شكلاً مُستديراً يَتدحرَجُ عَلى الأرضِ بَينَ أَزِقَّةِ القَريةِ.

فَرحانُ وحيدُ أُمِّهِ، لا بَنينَ ولا بَناتِ، وحدَهُ نشأَ في **كَنَفِها**. امرأةٌ، وطِفلٌ وحيدٌ... طِفلٌ يَشغَلُها عَنِ الدُّنيا، ويَشغَلُ جَلَساتِ **السَّمَرِ**.

«يُقبُرْني فَرحانْ، اليومْ أَكلْ جاطْ بطاطا».

ويَعودُ إلى البيتِ، الدِّماءُ تَفورُ مِن جبينِهِ، والدُّموعُ تَغسِلُ خَدَّيهِ:

- ضَربْني مَنصور!

- يِكْسُرْ إيدْ اللّي ضَرَبَكْ... وَينْ هو إبنْ الـ... تُقبُرْ إمَّكْ... تَعا لَقَلبي.

المُفَلْطَح: العريضُ.

الكَنَفُ: الحِضنُ.

السَّمَرُ: الحديثُ في السَّهَراتِ.

وتَضُمُّه إلى صَدرِها، وتَترُكُ الدِّماءَ شاهداً عَلى الجريمةِ. ثُمَّ تَهجُمُ عَلى بيتِ الجيرانِ:

ـ ضُبّوا ابنْكُم... حاجْ مْسَلَّطْ عالصَّبي... اصْبروا حتّى يْصيرْ رِجّالْ بيفَرْجيكُم.

وتَرتاحُ نَفسُ الطِّفلِ في حمايةِ أمِّهِ، فيَنحشِرُ في صَدرِها، ويُمرِّغُ أنفَهُ المبلَّلَ فوقَ ثَوبِها.

ويُطيِّبُ بو منصورٍ خاطرَها:

ـ الأولادْ بيسَوّدو الوِجْ ياسِتْ كاتْرينا... رَحْ إقْصُفْ عُمرو ابني هالعَفريتْ.

ويَهرُبُ العِفريتُ، ولا يَأوي إلى البيتِ قبلَ حُلولِ الظّلامِ، ويَنسى والدُه **الوعيدَ**.

فَرحانُ يَلعبُ في الزُّقاقِ، ويَتحمَّعُ حَولَهُ عَفاريتُ الحيِّ:

ـ قولْ: سينْ...

ويَلفِظُ بها «ثينْ».

الوعيدُ: التّهديدُ.

ويُقَهقِهونَ مِن أعماقِ حناجِرِهِم... فيَقعُدُ فَرحانُ عَمى الأرضِ، يُصوِّبُ إلَيْهِم نِظْراتٍ عاجزةً... ويَمضونَ في تعذيبِهِ:

ـ فَرحانْ... قولْ «وَزْوَزْ».

ولا يَملِكُ إلّا أن يَخضَعَ للأَوامرِ، فيُردِّدَ: «وَلْوَلْ».

وتَصدَحُ سُخريَّتُهم في أرحاءِ الزّاروبِ الضّيِّقِ، وتَصلُ أُذنَيْ كاتْريا، فتَتركُ المطبخَ، وتَهرَعُ إلَيْهِم تُفرِّقُهُم مِن حَولِهِ، وتَعودُ به إلى البيتِ:

ـ كَمْ مرّةِ قِلْتِلَكْ ما تِلْعَبْ مَعْهُم... وْلادْ السّتّينْ... عامْبينَكْ مَسْخرَه...

ويَضجَرُ الطِّفلُ، فيُغافِلُ والدتَهُ، ويَخرجُ إلى الزُّقاقِ مُجدَّداً...

ـ فَرحانْ... تَعا نِتْسابَقْ بالرَّكْض: واحِدْ... تْنَيْن... ثْلاتِه...

ويَركضونَ كالسِّهامِ الرّشيقةِ... سيقانُهُمْ النّاحلةُ مَكسوَّةٌ بالغُبارِ، مُلوَّحةٌ بأشعّةِ الشّمسِ... وأقدامُهُم حافيةٌ، مُشقَّقةٌ. سيقانُهُم مُعتادةٌ الجَرْيَ، ويَبقى هو

في المؤخَّرةِ، يُعيقُه عَن مُجاراتِهِم ثِقَلُ حِذائِهِ، وبَلادةُ جِسمِهِ... فما يَسيرُ خُطوتَيْنِ حتّى يَحِسَ ليَستريحَ. ويَعودونَ إلَيْهِ، يَتصبَّبُ العَرقُ مِن جِباهِهِم، ويُداعِبُ الهواءُ صَدى عَبَثِهِم وسُخرِيَّتِهِم:

ـ يا عَيْبو... يا عَيْبو.

ويَتطوّعُ بَعضُهُم لحَملِ فَرحانَ... إنّهُ الضّحيّةُ، جريحٌ وقعَ في ساحةِ القتالِ... فيُمسكونَهُ مِن أطرافِهِ، ثُمّ يَعودونَ به إلى فَيْءِ السّنديانةِ الكبيرةِ.

ويَبدؤونَ لُعبةً جديدةً... كلٌّ واحدٍ يَلفِظُ باسمِهِ...

ـ وإنْت شو إسْمَكْ؟

ـ فَنْحانْ!

ويَضحكونَ... ويُشارِكُهُم في الضَّحِكِ، وهو لا يَدري السّببَ.

ويُصبحُ فَرحانُ في السّادسةِ مِن عُمرِهِ، سِنِّ دُخولِ المدرسةِ...

ـ بَدَّكْ تْكونْ أَشطَرْ مِنْ كِلّ الأولادْ، فاهِمْ؟

العبثُ: اللّعِبُ والهزْلُ.



أَوصَتْهُ أمُّه، وهِي تُودِّعُه عَلى بابِ المدرسةِ، بعدَما أَلبسَتْهُ ثِيابَهُ الجديدةَ وحذاءَهُ المُلمَّعَ، وحَمَّلَتْهُ كيساً خاطَتْهُ خِصّيصى لِهَذه المناسَبةِ.

ويَتعذَّبُ الصّغيرُ بَينَ وَصيَّةِ أمِّه ومُتطلَّباتِ العالَمِ الجديدِ.

لَم يَكُنْ سَهلاً عَليهِ الخَوضُ في تِلكَ **المُعَمَّياتِ**... والأستاذُ! لأوّلِ مرّةٍ يواجِهُ رَجلاً حقيقيّاً، غَيرَ الجيرانِ والرِّجالِ الَّذينَ يُصادِفُهُم في الطَّريقِ، وصورةِ أبيهِ المعلَّقةِ فَوقَ الجِدارِ.

صَوتُ الرَّجلِ **يُجفِّلُه**، وتَسري **الرِّعْدةُ** في عُروقِهِ حينَ يَجيئُه الصَّوتُ آمراً:

فَرحانْ، قومْ عاللّوح.

ويَتلفَّتُ الصّغيرُ حَولَهُ، مُستنجِداً بالرُّفَقاءِ، لَعلَّ أَحدَهُم يُنقِذُه مِن هَولِ الكارثةِ. وتُقابِلُ نَظَراتُه عيوناً

المُعمَّياتُ: مفردُها المُعمَّى وهو ما عُمِّيَ معناهُ وخفي، الكلامُ الغامضُ.
يُجفّله: يُفزِّعُه ويُنفِّرُه.
الرِّعدةُ: الرَّجفةُ والاضطرابُ مِن شِدّةِ الخوفِ.

تَستعِدُّ للضَّحِكِ... ولا يَملِكُ إلّا أن يَخضَعَ للأَوامِرِ، فيَلتقِطَ الطَّبشورةَ بيَدٍ راجفةٍ.

ـ اكتُبْ: دَرَجَ.

وتَخونُه أعصابُه... فتَسقطُ الطَّبشورةُ مِن يدِهِ ويُنكِّسُ رأسَهُ، بَينَما يَنطلِقُ الطّلّابُ في **صَخَبِهِم** السّاخِرِ.

ويُخرِسُهُم صَوتُ الأستاذِ. ثُمَّ يَرفعُ وجهَ الصّغيرِ صَوْبَهُ، ويَطلُبُ إلَيْهِ أن يُعيدَ المحاولةَ مُجدَّداً.

وتَرتفعُ اليَدُ الصّغيرةُ بتَردُّدٍ تُجرِّرُ الخطَّ الأبيضَ عَلى اللَّوحِ، وتَعجَزُ عَن بلوغِ الغايةِ.

ويَطلُبُ إلَيْهِ المعلِّمُ **برِفْقٍ** أن يَعودَ ويَجلِسَ مكانَهُ في الصّفِّ... لقَدْ عجزَ فَرحانُ عَن تَلبيةِ رَغبةِ أمِّهِ... ولَمْ يَستطِعْ أَن يَكونَ أَشطرَ أَولادِ الصّفِّ... ولَكِنَّهُ بَقيَ في المدرسةِ خمسَ سنواتٍ، سِتَّ سنواتٍ، وأَطَلَّتْ

يُنكِّسُ: يُطأطِئُ، يحني، يخفِضُ.
الصَّخَبُ: اختلاطُ الأصواتِ، الصِّياحُ.
الرِّفقُ: اللُّطفُ، لينُ الجانبِ.

سنواتُ **المُراهَقةِ** تَحمِلُ إِلَيْهِ عِبْئاً جديداً... كانَ عليْهِ أَنْ **يُصارِعَ** ما بَينَ رَغبةِ أمِّهِ في حمايتِهِ، ورَغبتِهِ في مُجاراةِ الرُّفَقاءِ.

وكانَ الصِّراعُ عنيفاً، مُرّاً: أمُّه تُصِرُّ عَلى حمايتِهِ، وعَدَمِ مُرافَقتِهِ للأَوْلادِ «القيبي المَرْبى والهَيِبه»، والرُّفَقاءُ **يُمعِنونَ** في السُّخرِيَّةِ مِن هَذهِ السَّيطرةِ المفروضةِ عَليْهِ. بَيْنَما هُم يَنعَمونَ بحُرِّيّتِهِم، ويَنطلِقونَ أسراباً، **يَتربَّصونَ** بالبَناتِ عندَ مَفارِقِ الدُّروبِ.

ولَم **يَعدَمْ** لَحَظاتٍ يُغافِلُ فيها أُمَّهُ، ويَنصرِفُ برِفْقةِ الأصحابِ... وكانوا يَدفعونَه أبَداً إلى فوهةِ البُركانِ، فيَرضخُ لطَلَباتِهِم ليَكسِبَ شيئاً مِن رِضاهُم، واعترافِهِم به وبرُجولَتِهِ المُتفتِّحةِ.

ـ «فَرحانْ»، شو رأيَكْ اللّيلِهْ بِغْزي عالكرومْ نْلاقي الصّبايا؟

المُراهقةُ: ما بعدَ الصِّبا، ومقاربةُ البلوغِ وتحرُّكُ الشَّهوةِ.
صارَعَهُ: حاوَلَ أنْ يَغلِبَهُ ويَطرحَهُ أرضاً.
يُمعِنون: يُبالِغون ويَصِلون إلى الحدِّ الأقصى.
تربَّص به: انتظرَهُ.
يَعدَمُ: يَفقِدُ ولا يجِدُ.

ولا يَتردَّدُ في مُرافقَتِهِم، وكَسرِ الطَّوقِ.

وقبلَ وصولِ الصَّبايا يَجلِسُ الفِتيانُ فَوقَ الصّخورِ، يَتشاوَرونَ في الأمرِ، ويَضعونَ الخِطّةَ للهجومِ... وتَقَعُ القُرعةُ عَلى فَرحانَ ليَبدأَ المُغازَلةَ... فيُلقّنونَهُ عِباراتٍ حاصّةً يَهمِسُها حينَ تَمرُّ مُرجانَةُ ورفيقاتُها **بمُحاذاتِهِم**.

ومُرجانةُ لَم تَكُنْ أَجملَ الفَتَياتِ، ولَكِنَّها ذكيَّةٌ، شَيطانةٌ. **تَذُرُّ** الرُّعبَ في نفوسِ الفِتيانِ، ولا يَجرؤونَ عَلى الِاقترابِ مِنْها بِكَلِمةِ غَزَلٍ... ويَعتبِرُ فَرحانُ اختيارَهُ لِهَذه المَهمَّةِ ضَرباً مِنَ التّقديرِ، فيُعيدُ العِبارةَ ويُكرِّرُها:

- يِسْلَمْ لي هالقَدْ... مِثْلْ قَضيبْ **البانْ**...

وكانَ حَرفُ السّينِ قَد عَصى عَلَيْهِ حَتّى هَذه السِّنِّ، ولَم يُطاوِعْهُ لِسانُه في لَفظِهِ بِلا «**لُثْغةٍ**»... ولَمْ يَتنبَّهْ

بمُحاذاتِهِم: أمامهم، قُربهم.

تَذُرُّ: تَرُشُّ، تَنشُرُ.

البانُ: شجرٌ مُعتدِلُ القَوامِ ليِّنٌ، يُشبَّهُ به القَدُّ لطولِه واستقامتِه ولُيونتِه.

اللُّثغةُ: النُّطقُ بالسّينِ كالثّاءِ، أو بالرّاءِ كالياءِ أو كاللّامِ، إلى غَيرِ هَذا.

لذلكَ في فَورةِ حماستِهِ، بَل لَم يَشُكَّ مُطلَقاً في حُسنِ نيّةِ الرُّفقاءِ.

ويُبصِرُ الصّبايا عَلى طَرَفِ الطّريقِ... فيتزايدُ خَفقانُ قَلبِهِ، وتَتسارعُ الدِّماءُ في عُروقِهِ، ومعَها تَسري رِعدةٌ غريبةٌ تَمتدُّ حَتّى شَفتَيْهِ، فتَرتعشانِ... ويَبقى مُصمِّماً عَلى تنفيذِ المُخطَّطِ والمضيِّ بالمَهَمّةِ الصّعبةِ، ومِن خَلفِهِ يَقفُ الفِتيانُ يوقِدونَ حماسَتَهُ.

وتَقتـرِبُ الفَتَيـاتُ... وتَنطـِقُ شَفتـاهُ وحدَهُـما مُنفصلتَيْنِ عَـن جَسـدِهِ... وحدَهُـما تُـردِّدانِ العبـارةَ ويُساعدُهُما لسانُه الكَسولُ:

- يِتْلَمْ لي هالقَدْ.

ويَتوقّفُ، ثُمَّ يُديرُ وَجهَهُ **المُضرَّجَ** بحُمرةِ الخَجلِ ليُقابِلَ رُفَقاءَهُ، فيَراهُم يَتغامزونَ مِن وراءِ ظَهرِهِ، ويَكبُتونَ ضَحِكاتِهِم.

أمّـا مُرجـانَةُ فلَـمْ تَـدَعِ الفُرصـةَ تَفـوتُ مِـن غَيـرِ أَنْ

المُضرَّجُ: المصبوغُ، المُلطَّخُ.

تُسجِّلَ دورَها في المعركةِ...

ـ فَرحانْ صارْ إِلو لسانْ؟!! جَسِّسْ لسانَكْ قَبْلْ ما تِحكي مَعْ بَناتْ النّاسْ.

ويَبتلعُ الصّفعةَ القويّةَ... ثُمَّ يَستندُ إِلى الصّحرةِ حائراً بينَ أنْ يَحتجَّ، أو يَصْمُتَ... وأخيراً يَرى الجميعَ يَضحكونَ، فلا يَتردَّدُ عَن مُشاركَتِهِم في الضَّحِكِ...

لَقَدْ نَجحَ عَلى رُغمِ كلِّ شيءٍ. نَجحَ في إِثارةِ مُرجانَةَ لتُكلِّمَهُ وتُوجِّهَ صَوبَهُ لسانَها اللّاذعَ.

ظَلَّ الرُّفقاءُ مدَّةً يَتندَّرونَ بما جرى. حتّى جاءَ يومٌ، وانتشَرَ خبرٌ جديدٌ بَينَ نساءِ القَريةِ: «فَرحانْ رَحْ يِتْجَوَّزْ...». فكَّرَتْ أمُّه أن تُزوِّجَهُ... فهو وحيدُها، والعادةُ تَقضي بأَن يَتزوَّجَ الوحيدُ باكراً... ولَمْ يُكذِّبْ فَرحانُ الخبرَ الَّذي باتَ طُرْفةً يَتندَّرُ بِها الرُّفَقاءُ طَوالَ أشهُرِ ذَلكَ الصّيفِ.

وأخيراً وَقعَ اختيارُه عَلى لطيفةَ، بنتِ بو مْهَنّا: بنتٌ عاقلةٌ، صحَّتُها طيِّبةٌ، «نْقوفْ وِجّها بيفِرّ مِنّو الدَّمْ...» وجِسْمُها؟ يا بارَكَ اللهُ! بِنْتْ «بِتْدِقِّلْها النَّوبِهْ». هَكذا

رأتْها كاتْرينا وقرَّرَتْ أَن تَخطُبَها لإبْنِها.

وتَمّتِ الخِطبةُ، فالزّواجُ... وما انقضَتِ السّنةُ حتّى أطلَّ المَولودُ الأوّلُ... وراحَتِ العائلةُ تَكبُرُ... وتَكبُرُ معَها المتطلَّباتُ. وباتَتِ الرِّزقةُ لا تَكفي فَرحانَ، فطَلبَ الوظيفةَ.

مِن أجلِ ذلكَ قامَ بعِدّةِ زياراتٍ لنائبِ المَنطِقةِ، ليُوَسِّطَهُ حتّى يؤمِّنَ له وظيفةً ملائمةً. وكانَ الرَّجلُ يَعِدُه خيراً... ثُمّ يُبعِدُه.

وأخيراً، لَم يَعُدْ يَستطيعُ إبعادَهُ... فقَدِ اقتربَ مَوعدُ الانتخاباتِ، وباتَ بحاجةٍ إلَيْهِ، إذاً لا بُدَّ مِن تَلبيَةِ رَغبتِهِ. فأمَّنَ له وظيفةً في **المَلاكِ** البلَديِّ. وانتَقلَ فَرحانُ معَ العائلةِ إلى «بيروتَ»، وتَركَ لأمِّهِ صيتَ الوظيفةِ، تُفاخِرُ به بَينَ نساءِ القَريةِ:

فَرحانْ استأْجَرْ بَيْتْ «بِبَيْروتْ»...

«وْلادْ فَرْحانْ رَحْ يمَضّوا فُرْصِةْ الصَّيفْ عِنْدي...».

المَلاكُ في اصطلاحِ الحكوماتِ هو جماعةُ أصحابِ المناصبِ أو الوظائفِ المُثبّتينَ في مناصبِهم أو وظائفِهم.

«فَرحانْ... يُقَبْرْني... آخِذْ وَظيفةْ مْهِمِّةْ في العاصمةْ».

«إجا الأَمْر بِتَرْقِيةْ فَرْحانْ».

ومَحا كلامُها الصّورةَ العالقةَ في أذهانِ النّاسِ، عَن غَباءِ فَرحانَ وبساطتِهِ، فصدَّقوا أقوالَها. وكُلَّما زارَ فَرحانُ أمَّهُ في القَريةِ كانَ سُكّانُ القَريةِ يَتوافدونَ للسّلامِ عَلَيْهِ، واستطلاعِ أخبارِ السّياسةِ، وأَخذِ رأيِهِ في الصِّراعِ بَينَ الشّرقِ والغربِ.

وكُلَّما زُرْتُ القَريةَ كانَتْ كاتْرينا أوّلَ مَن يَطرُقُ بابي للسّؤالِ عَنِ الحالِ، وعَن فَرحانَ بصورةٍ خاصّةٍ:

- ما شِفْتِ فَرحانْ؟

- لا يا سِتْ كاتْريا، بْتِعِرْفي «بَيروتْ» كبيرِهْ، وكلّ واحِدْ مِنْهي بْشُغْلُه.

ولا يُقنِعُها الجوابُ، فتَعودُ مُجدَّداً:

- وكيفْ ما شِفْتِ فَرحانْ؟ وَلَوْ، حيرانْ رْبيتو سَوا.

صحيحٌ... السّتُّ كاتْرينا عَلى حقٍّ، لقَدْ رَبينا في حيٍّ واحدٍ، في زُقاقٍ واحدٍ... ثُمَّ فَرّقَتْنا الأيّامُ...



فأَصبحَ فَرحانُ موظَّفاً في البلديّةِ، وأنا معلِّمةً في أَحدِ مَعاهدِ العاصمةِ. كِلانا في «بيروتَ»، ولا نَلتقي... مَرّةً في السّنةِ عَلى الأَقلّ؟ هَذا غَيرُ مَعقولٍ!

وبالأَمسِ، وبَيْنَما كُنْتُ أَجتازُ أَحدَ شوارعِ المدينةِ، رأيْتُ فَرحانَ... كانَ يَرتدي البِدلةَ الرّسميّةَ، ويَقفُ عِندَ مُفترَقِ الطُّرقِ، بَينَ شَفتَيْهِ صفّارةٌ، ويَداهُ تَتحرّكانِ بإعطاءِ الأَوامرِ. بَدا لعَينيَّ، في وِقفتِهِ تِلكَ، أَشبَهَ بأَميرٍ يَتحكَّمُ بمصيرِ العِبادِ.

قصة

لَوْ

لَو عَرَفْتُ أنَّها تَنوي الرَّحيلَ باكراً، لكُنْتُ ودَّعْتُها في ذَلكَ النّهارِ. كُنْتُ انحنَيْتُ عَلى كَتِفِها، وعانَقْتُها، شَدَدْتُها إلى صَدري وقَبّلْتُ وَجهَها وعَينَيْها، وأَذَبْتُ مِن عَينَيْها ذَلكَ الصّقيعَ.

ولَكِنَّ البَلاغَ لَم يَصِلْني، وإِرادةُ اللهِ تَنصبُّ فَوقَ رؤوسِنا، تَندلِقُ عَلَيْنا كمِياهِ المَطرِ، ولا مِظلّةَ واقيةً في أيدينا، ولَيسَ لنا، بَعدَ هَذا، الخِيارُ... «إرادتُه، إرادةُ اللهِ عَلى الرّأسِ والعَينِ»، هَكذا تَعوّدَ النّاسُ في قَريتِنا أَن يُردِّدوا. ويَستسلمونَ بَعدَ هَذا استسلاماً لا حَوْلَ له ولا خَلاصَ...

وإرادةُ اللهِ كانَتْ مُستعجِلةً جدّاً!

حينَ تَركْتُها كُنْتُ آمَلُ أَن أَعودَ وأَلقاها عِدّةَ مرّاتٍ... كانَتِ العافيةُ تُشرِقُ فَوقَ وَجهِها، وتَتجلّى في حركاتِها وبَسمتِها... وهَكذا اكتفَيْتُ بهَزِّ يدِها، ورَضيتُ مِنْها قُبلةً سكبَتْها عَلى خَدّي، ثُمَّ خَطفْتُ نَفسي مِن بَينِ ذِراعَيْها لأَلحقَ بالعَرَبةِ. والعَرَبةُ أَبَداً مُستعجِلةٌ، ولا تَنتظِرُ المتأخِّرينَ.

ووَقَفَتْ هِي في الشُّرفةِ تَتأمَّلُني. وسُرعانَ ما تَحوَّلَ كِيانُها كُلُّه إِلى عَينَيْنِ راحَتا تَتَّسعانِ حَتّى ظَلَّلَتا وُجودَها كلَّهُ. وحينَ أَقلعَتِ العَرَبةُ شَعرْتُ أَنَّ العَينَيْنِ انسَلَختا مِن وَجهِها ولَحِقَتا بي، تُرَفرفانِ فَوقَ وَجهي، في عَينيَّ. وبَعدَ ذَلكَ شَغلَتْني مَشاهدُ جديدةٌ في الطّريقِ، فلَمْ أَعُدْ أُبصِرُهما. غَيرَ أَنّي استيقَظْتُ مَذعورةً تِلكَ اللّيلةَ، وفَتحْتُ عَينيَّ في ظُلمةِ غُرفتي، فأَبصرْتُ العَينَيْنِ تَزحَفانِ إِليَّ، تَحمِلانِ أَقوالاً غامضةً... كانَ فيهِما استسلامٌ وحُنوٌّ وتَوسُّلٌ، ومُحاوَلةُ رفعِ الصّوتِ،



مُحاوَلةُ البَدءِ باحتجاجٍ، ثُمَّ رُضوخٌ مَريرٌ مقهورٌ وتَطلُّعٌ إلى الأُفقِ البعيدِ. كانَتِ العَينانِ بِناءً إنسانيّاً متَكاملاً. أَبصرْتُهما تَرفعانِ اليَدَيْنِ في مُحاوَلةِ طَيَرانٍ، مُحاوَلةٍ جِدّيّةٍ للطَّيَرانِ، للوُصولِ إلى مكانٍ ما، للهَربِ... وكانَ فيهِما صُراخٌ وذُعرٌ.

نَهضْتُ مِنَ الفِراشِ حينَ عَجِزْتُ عَن إغماضِ عَينيَّ. كُنْتُ، كُلَّما حاوَلْتُ الإغفاءَ، أُبصِرُ العَينَيْنِ تَزحفانِ إليَّ، تَنسكِبانِ فَوقَ وُجودي، وتَتلمّسانِ وَجهي، وتَمتدُّ مِنْهما أَناملُ رقيقةٌ ناعمةٌ تُداعبُ ذَقني، فأَنتفِضُ مذعورةً، وأُنيرُ المِصباحَ، وأَعودُ للبَحثِ عَنْهُما في أرجاءِ الغُرفةِ.

ولَمْ أَذُقِ النّومَ. قَضَيْتُ اللّيلَ بَينَ دَفَّتَي النّافذةِ، وتَركْتُ غُرفتي تَسبحُ في النّورِ. وظَلّتِ العَينانِ تَشُقّانِ الصَّمتَ وتَقطعانِ الحُدودَ المُظلِمةَ، زاحفتَيْنِ إليَّ،

الرُّضوخُ: الخُضوعُ.
مَريرٌ: مُحْكَمٌ، شديدٌ.
مقهورٌ: مغلوبٌ، مذلولٌ.

فتُصادِمانِ الزُّجاجَ الشَّفّافَ، وتَقِفانِ خارجاً، خَلفَ الزُّجاجِ، تُحدِّقانِ إلى وَجهي بذُعرٍ. وتَسري رِعدةُ الجَزَعِ في عُروقي، فأُحاوِلُ أن أصرُخَ، ثُمَّ أتذكّرُ أنّي وَحدي في الغُرفةِ، ولَن يَبْعُدَ صَدى صَرَخاتي أكثرَ مِن حُدودِ الجِدارِ.

ولماذا الصُّراخُ؟ وأنا لَم أكُنْ خائفةً مِن عَينَيْها؛ إنَّما خَوفي كانَ صادراً عَن شعورٍ بالعَجزِ؛ كانَ هُناكَ حاجزٌ كثيفٌ بَينَنا، فلا أنا أستطيعُ الوُصولَ إلَيْهِما، ولا هُما استطاعَتا أن تَقطعا المَسافةَ كُلَّها وتُحطِّما الحواجزَ لتَصِلا إليّ.

أخيراً طَلعَ الفجرُ وحَملَ إليَّ بعضَ الهدوءِ. كُنْتُ آمَلُ أن أخرُجَ إلى الشّارعِ وأحتميَ بضَجيجِ النّاسِ، أتوسّلُ إلى المارّةِ أن يَتجمّعوا ويُساعدوني على تَحطيمِ الحواجزِ... ثُمَّ فكَّرْتُ في عَملي في المدرسةِ، وكُنْتُ واثقةً بأنّي سأنسى الكابوسَ حالَما أُصبِحُ بَينَ تَلامذتي الصِّغارِ... حاوَلْتُ أن أُغرِقَ حَواسّيَ كُلَّها في شرحِ الدّرسِ لتَلامذتي، فلَمْ أنجحْ. ظَلّتِ العَينانِ

تُحوِّمانِ حَولي، تَقفانِ بَينَ رُموشِ عَينيَّ، جِداراً يَصُدُّ المَرئيّاتِ... ولَمْ أَعُدْ أَدري ماذا أَفعَلُ، وكَيفَ أَتصرّفُ. فجأةً طُرِقَ البابُ، ودَخلَتِ المُديرةُ تَحمِلُ إليَّ رسالةً... فَهِمتُ مَضمونَها مِن غَيرِ أن أَفُضَّها.

نعمْ، إرادةُ اللهِ عَلى الرّأسِ والعَينِ. هَكذا اعتادَ سُكّانُ بَلدِنا أَن يُردِّدوا. وأنا لَم أَصرُخْ ولَمْ أَحتجَّ. لَو عَرفْتُ فقَطْ أَنَّ أمّي قَد كُتبَ عَلَيْها أَن تَموتَ في اليومِ التّالي لَما بَخُلْتُ عَلَيْها بقُبلةِ الوَداعِ.

فَضّ الرّسالةَ: فَتحها.

قصة

كَــلامٌ

الكَونُ، بالنِّسبةِ إلى العمِّ أَسعدَ، كُرَةٌ صغيرةٌ، يُديرُها عَلى رؤوسِ أَصابعِهِ، يَعبَثُ بها كَيْفَما يَطيبُ له، ويَجني مِن عبَثِهِ فَرَحاً كثيراً.

ما عَرَفْتُه يوماً **مُقطِّباً**، ولا مَهموماً، شأنَ سِواهُ مِن أبناءِ هَذه الفانيةِ. كلُّ مُشكِلةٍ تَجدُ عندَهُ حلاًّ نِهائيّاً، ولِكُلِّ سؤالٍ يُواجِهُه جوابٌ مُعَدٌّ سَلَفاً، وأَهمُّ شروطِهِ أَن يُرضيَ طبعَهُ الميّالَ إلى المبالَغةِ.

أَي إنَّ حياتَهُ سِلسلةٌ مِنَ الانتصاراتِ **الدّونْكيشوتيّةِ**.

وإذا كانَ شَكلُ الإنسانِ يُؤثِّرُ في مَسلَكِهِ وتَصرُّفاتِهِ،

مقطِّباً: عابساً.

الدّونكيشوتيّة: المنسوبة إلى «دون كيشوت» مُحارب الطّواحين.

فلا شكَّ في أَن شكلَ العمِّ أَسعدَ كانَ أَهمَّ الدَّوافعِ والمؤثِّراتِ في حياتِهِ عُموماً.

فهو طويلُ القامةِ، ذَلكَ الطّولَ الفارعَ الّذي لا يَخلو مِنَ التّحدّي، خُصوصاً في مُجتَمعِ الفلّاحينَ الكادحينَ الّذينَ تَرفُضُ الأرضُ أَن تَفسحَ لهُم مَجالاً **رَحْرَحاً** ليَرتفِعوا إِلى العَلاءِ.

ومعَ أَنَّ وَجهَهُ لَم يَكُنْ يَتميَّزُ **بوَسامةٍ** تُذكَرُ، بَل يَميلُ إِلى الغَرابةِ، غَيرَ أَنَّهُ كانَ لصاحبِ ذَلكَ الوجهِ رأيٌ آخرُ: فهو يَرى في خَلقِهِ أَثراً مِن كلِّ عظيمٍ وَردَ ذِكرُه في تاريخِ البَشَريّةِ!

والحقيقةُ أَنَّ عَينَيْهِ تُشبهانِ عَينَيْ صقرٍ دائمِ البحثِ عَن فريسةٍ، والأنفُ مَعقوفٌ مِثلَ مِنقارِ نَسرٍ عتيقٍ، والجبينُ ضيِّقٌ، والذَّقْنُ وطولُ القامةِ في تناسُقٍ تامٍّ؛ أمّا الأُذنانِ فنافِرتانِ، كلُّ واحدةٍ في اتِّجاهٍ مُعاكِسٍ لاتِّجاهِ أُختِها.

الرَّحرَحُ والرَّحراحُ: الواسعُ المُنبسِطُ.
الوَسامةُ: الحُسْنُ والجمالُ.

فشَكلُه، إذاً، لَم يَكُنْ يَجذِبُ الفَتَياتِ بقَدْرِ ما كانَ موضوعَ تَندُّرٍ في حلَقاتِ السَّمَرِ.

أمّا حُضورُه فهُ حكايةٌ أُخرى: كانَتْ له مَقدِرةٌ عَلى الكلامِ ساحرةٌ، تُخرِسُ مَن حَولَهُ وتُديرُ الدَّفّةَ لمَصلحتِهِ.

ولا أَحدَ يُنكِر عَلى الرَّجلِ مَوهِبَتَهُ النّادرةَ في سَردِ الحكاياتِ بأُسلوبٍ مُثيرٍ يَأسِرُ أَلبابَ السّامِعينَ، ويُسمِّرُهم في مَقاعدِهِم طَوالَ ساعاتٍ، وكأنَّهُم في حَضرةِ ساحرٍ مِن غَيرِ هَذهِ الأرضِ.

وحَتماً، لَم يَكُنِ المُستمِعونَ مِنَ السَّذاجةِ إلى حَدٍّ يُصدِّقونَ معَهُ كلَّ ما يَرِدُ في تِلكَ الحكاياتِ، إلّا أنَّهُم كانوا يُصغونَ إلَيْها بشَوقٍ، ويَطلُبونَ المَزيدَ.

وكانَ العمُّ أَسعدُ **يُفرِدُ** للبُطولةِ صَفَحاتٍ عديدةً مِن كتابِ حياتِهِ: فالدّائرةُ تَدورُ، في كلِّ حكايةٍ، عَلى أَحصامِهِ، ليَخرُجَ هو بطلاً مُظفَّراً. وقَدْ فَسَحَتْ له

يُفرِدُ: يُخصِّصُ



مِهنتُه الفُرصةَ ليَصولَ ويَحولَ في ساحِ الكلامِ، مِن غَيرِ شاهدٍ أو رقيبٍ.

«المُكاراةُ» كانَتْ واسطةَ ارتزاقِه. وكانَ لهَذه المِهنةِ، في أيّامٍ مَضَتْ، عِزٌّ وعَظَمةٌ: فالمُكاري هو المتعهِّدُ بنَقلِ المسافرينَ والبضائعِ، ويَجتازُ في سبيلِ هَذا مَسافاتٍ شاسعةً بَينَ القُرى والمَزارعِ، في ليالي الشّتاءِ الموحِشةِ وأيّامِ الصّيفِ المُحرِقةِ.

وهَذه المِهنةُ حَقلٌ خَصْبٌ لرِحْلاتِ الخَيالِ، فالمَرءُ يَبتكِرُ ابتكاراتٍ شَتّى ليَدفعَ عَنْه الضَّجَرَ والخوفَ، ويَنسى مَتاعِبَهُ.

ويُمكِنُنا اعتبارُ تِلكَ المُغامراتِ البِدائيّةِ مُوازيةً لمُغامراتِ الطّيّارينَ ورُوّادِ الفضاءِ في أيّامِنا الحاضرةِ، ورُبَّما كانَتْ أكثرَ مشقّةً، إذْ إنَّ مسؤوليّةَ الإنسانِ والحيوانِ والحِملِ كانَتْ تُلقى، دُفعةً واحدةً، على

صالَ: وَثَبَ وسَيْطَرَ
السّاحُ: السّاحاتُ
المُكاراةُ: تأجيرُ الدّوابِّ وخصوصاً الحميرَ والبغالَ.

عاتِقِ القائِدِ النّشيطِ: المُكاري.

ورُبَّما بَدأَتْ قِصصُ العَمِّ أسعدَ مِن هَذا المُنطلَقِ، غَيرَ أنَّها لَم تَعرفْ حدّاً تَتوقَّفُ عِندَهُ، وحَتّى بعدَما غَزَتْ مَنطِقَتَهُ السّيّاراتُ مِن كلِّ الأحجامِ، فقَطعَتْ رِزقَهُ ورِزقَ بَغلِهِ الشّهيرِ.

والتَّطوُّرُ الَّذي أصابَ وسائلَ النّقلِ، أصابَ حياةَ الرَّجلِ في الصَّميمِ، فتَوقَّفَ عَنِ العملِ. ولَمْ يَرضَ أنْ يَختارَ مِهنةً أُخرى تُنزِلُه إلى صفوفِ مُواطِنيهِ مِنَ الفلّاحينَ وأصحابِ الحِرَفِ الصّغيرةِ، هو الَّذي كانَ سيِّدَ البَراريِّ و**الفَلَواتِ**، وسُلطاناً غَيرَ مُتوَّجٍ عَلى أقدارِ النّاسِ.

وهَكذا بَدأَ مَرحلةً جديدةً مِن حياتِهِ سادَتْ فيها البِطالةُ، وارتَفعَتْ نِسبةُ الكلامِ، وانخَفضَتْ نِسبةُ الأحداثِ، وهَذا ما اضطَرَّهُ إلى السَّطوِ عَلى خَزّانِ الذّاكرةِ، **يَجترُّ** ما خَبّأَهُ مِن **سَوالفِ الأيّامِ** الغابرةِ.

الفَلَواتُ: مفردُها الفَلاةُ وهِيَ الصّحراءُ الواسعةُ.
اجترَّ الخروفُ: أعادَ الأكلَ مِن بطنِهِ فمَضغَهُ ثانيةً، وهُو بمعنى يستعيدُ الذّكرياتِ.
سَوالفُ الأيّامِ: الأيّامُ السّالفةُ أي السّابقةُ.

وارتَفعَتْ درجةُ المبالَغةِ في حكاياتِهِ لتَّعويضِ عَنِ الواقعِ الفارغِ، فانقَسمَ المُستمِعونَ إلَيْهِ فريقَيْنِ: مُتشفِقٍ وساخِرٍ.

إلّا أَنَّ الرَّجلَ ظَلَّ بعيداً عَن مُلاحظةِ رُدودِ الفعلِ الخارجيّةِ، غارقاً في مياهِ مُحيطِهِ الخاصِّ. وبَقيَتْ له مَهارةٌ خاصّةٌ **تَبلْوَرَتْ** في تِلكَ الفَترةِ بالذّاتِ، وتَجلَّتْ في قَصِّهِ للحكايةِ الواحدةِ عَشَراتِ المرّاتِ.

مِن ذَلكَ قِصّةُ مقابَلتِهِ للجِنِّيّةِ الَّتي كانَتْ تُسرِّحُ شَعرَها بِمُشْطٍ مِن ذَهبٍ، وتَقفُ عِندَ كَرْمِ «السُّكَّرَه».

فالجِنِّيَّةُ كانَتْ تَتحوَّلُ في بعضِ رواياتِهِ إلى ابنةِ مَلكٍ غَضِبَتْ عَلَيْها السّاحرةُ، أَو إلى فتاةٍ رائعةِ الحُسنِ عاشَتْ قَبلَ مِئاتِ السّنينَ في القَريةِ، وذاتَ ليلةٍ اختَفَتْ مِن غَيرِ أَن يَعلمَ بمصيرِها أَحدٌ... إلّا أَنَّها ظَلَّتْ تَظهرُ، عَبرَ تِلكَ السّنينَ، على بعضِ المحظوظينَ، وهو مِنْهم.

تبلورتْ: ظهرت جليّةً كالبّلورِ وهو الزّجاجُ أو الجوهرُ الأبيضُ الشّفّافُ.

وكانَتْ تِلكَ المَخلوقةُ تُسرِّحُ شَعرَها تارةً بِمُشطٍ مِن ذَهبٍ أَو **عَقيقٍ**، وتَتَعرّى إلّا مِن شَعرِها الأشقرِ، أَو تَرتدي أثواباً **مُقصّبةً**، وذَلكَ بِحَسَبِ مِزاجِ أَسعدَ الرّاوي!

والفتاةُ لا تَنفكُّ عَن مُغازَلتِهِ، ودَعوتِهِ لِيُوافيَها في مكانٍ تُعيِّنُه، لتُطلِعَه عَلى كنزٍ دفينٍ. أمّا لماذا لَم يَتحقَّقْ واحدٌ مِن تِلكَ الوُعودِ، أَو لماذا ظَلَّتِ الجميلةُ عاجزةً عَن إِحداثِ أَيِّ تَبديلٍ في حياةِ العمِّ أَسعدَ؟ فالجوابُ عَن هَذا نَقطِفُه في خاتمةِ كلِّ روايةٍ: كانَ هو السّببَ! فهو دائمُ **الإخلافِ بوَعدِهِ**،لأنَّهُ لا يَثِقُ ببَناتِ حوّاءَ!

وجاءَ يومٌ أَحسَّ فيهِ الرَّجلُ بالحاجةِ، وضاقَتِ الدُّنيا في وَجهِهِ. وصودِفَ أَن ساقَتِ الأقدارُ إِلى القَريةِ، في تِلكَ الآونةِ بالذّاتِ، عانِساً مُغترِبةً، عادَتْ تَبحَثُ عَن زوجٍ يُعينُها في إِدارةِ أَعمالِها الواسعةِ، عَلى حَدِّ قولِها.

العقيقُ: جوهرٌ أو خرزٌ أحمرُ

المقصّبُ من الأثوابِ: المطرّزُ بخيطانٍ ذهبيّةٍ صفراء.

أخلفَ بالوعدِ: أخلَّ به ولمْ يُتمِّمْهُ.

وركَّزَتْ أنظارَها عَلى العمِّ أَسعدَ الَّذي وَجدَ فيها مَهْرَباً يُنقذُه مِن مَذلَّةِ الفَقرِ. وقَبلَ أنْ يَتَّسِعَ المَجالُ لشبابِ القَريةِ ليَعزِلوا النّوادرَ حَولَ هَذا اللّقاءِ الطّريفِ، بَينَ النَّسرِ والجاموسةِ، كانَ خَيالُ الرَّجلِ قَد سَبقَهُم أشواطاً، فإذا العانسُ الضّخمةُ تَتحوّلُ في ظَنِّهِ إلى تِلكَ الفتاةِ السّاحرةِ الَّتي كانَتْ تَطلُعُ له، كُلّما قامَ بِرحلةٍ... ومَظهرُها القبيحُ الحاليُّ لَن يَلبثَ أَن يَنجليَ عَنِ الحقيقةِ الحُلوةِ، بعدَما تَتِمُّ الفَرحةُ، ويُفكُّ قَيدُ **الرَّصَدِ!**

لقَدْ صَدَّقَ العمُّ أَسعدُ، بَل آمنَ بأنَّ المُغتربةَ هِي ابنةُ المَلكِ الَّتي سَحرَتْها الجِنّيَّةُ الخبيثةُ، وأنَّها بانتظارِ بُطولتِهِ ليَفُكَّ طَوقَ السِّحرِ مِن حَولِها.

وهَكذا سافرَ معَها عَلى بَركاتِ اللهِ، وانطفأَ بغيابِهِ قِنديلُ الأُنسِ فَوقَ مَصاطِبِ القَريةِ.

وقَبلَ أَشهُرٍ سَرَتْ في القَريةِ شائعةٌ تَقولُ إنَّ العمَّ أَسعدَ سيَعودُ! وتَضاربَتِ التَّكهُّناتُ حَولَ سببِ

الرَّصَدُ (في لغة العامّة): طيفٌ أو شبحٌ أو قوّةٌ خفيّةٌ تُراقبُ الإنسانَ وتَمنعُه مِنَ القيامِ بما يرغبُ.

العَودةِ: بعضُهُم قالَ إنَّهُ عَجزَ عَن فَكِّ السِّحرِ، لِذا طَردَتْهُ الأميرةُ، وبعضُ الخُبثاءِ ذَهبَ إلى القولِ إنَّهُ طيَّرَ ثَروةَ الزَّوجةِ عَلى أجنحةِ مُغامراتِهِ الخَياليّةِ، ولَمْ يَبقَ بَعدَ المالِ سِوى صورةِ القِردِ.

غيرَ أنَّ الرَّجلَ عادَ فعلاً، وكَما يَليقُ برَجلٍ مِن وَزنِه أن يَعودَ: أُقيمَ له استقبالٌ حافلٌ في القَريةِ، الَّتي دَخلَها دُخولَ الفاتحينَ محمولاً فَوقَ أكتافِ الشّبابِ؛ ولَدى وصولِهِ وُزِّعَتِ الحَلوى عَلى الأطفالِ، وزَغردَتِ الفَتَياتُ، ورَقصَ الشّبابُ حَتّى مَطلَعِ الفجرِ.

وكانَ هو يَقفُ في وَسَطِ الأحداثِ، فَوقَ وَجهِهِ ابتسامةُ الظَّفَرِ، ابتسامةٌ استطاعَ أن يَمحُوَ بها مِن ذاكرتِهِ آثارَ خِدعةٍ ساقَتْهُ إليْها حوّاءُ يائسةٌ، وهزيمةٍ ضربَتْهُ بها لغةٌ غريبةٌ لَم **يَدرِجْ عَلَيْها** لسانُه، ولَمْ تُطاوِعْهُ في بناءِ قُصورٍ جديدةٍ.

دَرَجَ على الأمر: اعتادَ القيامَ به

الاستثمارُ التّربويُّ

1 جزيرةُ الوَهمِ

1 في الفَهمِ والتّحليلِ

1. ماذا عنت الكاتبةُ بقولِها عن أبيها: يمدُّ جسمَه بعباءةٍ واسعةٍ، كنّا نشارِكُه في نِعَمِها في أُوَيقاتِ الرِّضى؟
2. كيفَ كانَ القرويّونَ يُمضونَ أيّامَهم في الشّتاءِ، بانتظارِ الصّحوِ؟
3. ما العلاقةُ الّتي تربطُ عنوانَ هذه القصّة بمضمونِها؟ وضّح إجابتَك.
4. كيف عالج بو أسعد خيبةَ أمله؟ وهَل ترى معه أنّ إفشاءَ السّرّ هو الّذي أفقدَهُ الكنزَ؟
5. ما العبرةُ الّتي خَلَصْتَ إليها من هذه القصّةِ؟

2 مِن وَحْيِ النّصِّ

1. هَل جرّبْتَ حياةَ القريةِ شتاءً؟ وهَل أحببْتَها؟ لماذا؟
2. هَل تُصدّقُ أنتَ أنّ للأحلامِ خلالَ النّومِ تفسيراً مستقبليّاً؟ لماذا؟
3. هَل تَعشقُ أنتَ المغامراتِ كما كانَ يَعشقُها أبو الكاتبةِ؟ ولَو كُنتَ مكانَه، فهل كُنتَ ساعدتَ بو أسعد على الحفرِ بحثاً عنِ الكنزِ؟ لماذا؟

3) في التّعبير واللُّغة

1 حَشَدَتِ الكاتبةُ مجموعةً متلاحقةً من الأفعالِ، في قولِها: «تَهيجُ الأمواجُ في صَدري، تَرفعُني، تَشدُّني، تَعصِرُني، فأفرحُ وأبكي وأَحلُمُ وأتعذّبُ». ماذا نسمّي هذا الأسلوبَ؟ وما أهمّيّتُه في التّعبيرِ عنِ المعنى؟ علّلْ إجابتكَ بالاستنادِ إلى ما أدّاهُ هذا الأسلوبُ هُنا.

2 بيّنْ وجهَ الشّبهِ في كلٍّ منَ التّشابيهِ التّالية:
- جمعتْنا أُمّي كما تجمعُ الدّجاجةُ فِراخَها.
- انطلقْتُ إلى الحاكورةِ كالمأخوذ.
- انتفخَ السّرُّ في صدري كالوَرَمِ.
- يَقفُ إزاءَها كالطّفلِ المشدوه.
- فصرتْ أمُّ أسعد كالقطّة.

3 أوّلِ المصدرَ منْ أنْ والفعلِ الّذي بعدها، في ما يلي، ثُمّ اضبطْهُ بالشّكلِ التّامّ محدّداً محلّهُ في الإعراب:
استطعْتُ أنْ ألتقطَها - تَسمحُ لي أنْ أرى - كانَ يستحيلُ على أبي أنْ يرفُضَها - أحكمَ لفّهُ قبلَ أنْ يُعيدَهُ إلى جيبه - اتّفقتِ الآراءُ على أنْ يَهبِطَ إلى العاصمة.

المُنعطَف

1) في الفَهم والتّحليل

1 بمَ شعرَ الأستاذُ ممدوحٌ عندما كلّمهُ ابنُه البكرُ وليدٌ؟ ولماذا؟

2 في القصّةِ ما يُشيرُ إلى سرعةِ ازديادِ العُمرانِ في المدينة، أينَ ظهرَ هذا؟ وما العباراتُ الّتي عبّرتْ عنه؟

3. ما كانَتْ رَدَّةُ الفعلِ لدى الأستاذِ ممدوحٍ، حينَ اكتشفَ ما جَرى في مكتبِه؟
4. كانَ الأستاذُ ممدوحٌ صاحبَ موقفٍ ثابتٍ في الحياةِ؛ كيفَ عبَّرَتِ الكاتبةُ عَن هَذا الأمرِ؟
5. نُلاحظُ شبهاً بينَ الانعطافِ في حياةِ بطلِ القصَّةِ، ومُجتمعِه؛ هَل لكَ أن تحدِّدَهُ؟

2 مِن وَحْيِ النَّصّ

1. هل تُحبُّ أن تكونَ صحافيّاً في المستقبلِ؟ لماذا؟
2. في لبنانَ صُحُفٌ محلّيّةٌ وصُحُفٌ عربيّةٌ؛ عدِّدْ عشرَ صُحُفٍ لبنانيّةٍ على الأقلِّ، وخمساً عربيّةً، معيّناً الدّولةَ الّتي تنتمي إليْها كلٌّ منها.
3. هل أنتَ مِنَ المعجَبينَ بقلمِ أحدِ الصَّحافيّينَ أوِ الأُدباءِ؟ مَن هو، وما الّذي يُعجبُكَ بقلمِه؟

3 في التّعبيرِ واللُّغةِ

1. تخيَّلْ في ما لا يُجاوِزُ خمسةَ عشرَ سطراً، حالَه الأستاذِ ممدوحٍ بعدَ عودتِهِ إلى البيتِ حاملاً معَهُ صدمتَهُ باستغناءِ المؤسّسةِ الصَّحافيّةِ عَن خِدماتِه.
2. أعِدْ بِحرِّيّةٍ مضمونَ الكلامِ التّالي، بأسلوبِكَ ولُغتِكَ:

«وأحسَّ بمَوجةِ دِفْءٍ تتمشّى في صدرِهِ وتذوبُ حلاوةً وحناناً، فتصلُ إلى الحافقِ تُضاعِفُ سرعةَ دقّاتِهِ».

3. حدِّدْ سببَ نَصبِ كلٍّ مِنَ الأسماءِ الّتي تحتَها خطٌّ:

فَسَحوا له هَذه <u>الفُرصةَ</u> . أَحسَّ في صباحِ ذلكَ اليومِ نشاطاً

عريناً - ما تزالُ شبحَ الشّباب - أمامَ المرآة - مقالُتُ أمسِ كان رائعاً - تذوبُ حلاوةً وحناناً - أطالَ التّحديقَ إلى وجهِ زوجتِهِ، ورآها جميلةً - حينَ انتقلَ إليْهِ قَبلَ ثلاثين سنةً - تتسعُ أرقّتُها ملاعبَ للصّغار.

3 العائدُ

1 في الفَهمِ والتّحليلِ

1 ماذا عنتِ الكاتبةُ بقولِها عن بدلة فارسٍ الجديدة: «كأنّما هُناك صلةُ قُربى بينها وبين زيّ الزّمنِ الأوّلِ»؟
2 كان فارسٌ يُريدُ الظُّهورَ بمظهرِ المُغتربِ المتحضّر، ولكنّهُ بدا غريبَ المنظرِ والحركاتِ، مثيراً للسُّخريةِ؛ لماذا؟
3 لماذا تبدّلتْ نظرةُ الصّبايا إلى فارسٍ بعد اغترابِه وعودتِه؟ أبدِ رأيَكَ في هَذا التّبدُّلِ.
4 كيفَ حاولَ فارسٌ أن يُعوّضَ من حياةِ البؤسِ والحرمانِ الّتي عاشَها في طفولتِهِ؟
5 قالتِ الكاتبةُ: «كانَ لا بُدَّ مِنَ الهبوطِ إلى «بيروتَ» لانتقاءِ الجهازِ وشراءِ المَصاغِ»؛ لماذا؟

2 مِن وَحْيِ النّصّ

1. هل تَحلُمُ أنتَ بالاغترابِ مثلَ فارسٍ المُغتربِ؟ علّلْ إجابتكَ.
2. إذا أردتَ السّفرَ، فأيَّ بلدٍ تحبُّ أن تزورَ؟ ولماذا؟
3. لماذا ينقُلُ الرُّعاةُ مواشيَهم إلى المُدُنِ في الشّتاءِ؟ ومتى يعودونَ بها إلى قُراهُم؟

4. أتؤيّدُ بقاءَ المغتربِ في غربتِهِ مدى الحياة، أم تُفضّلُ له أن يعودَ إلى وطنِه، ولو بعدَ غيابٍ طويلٍ؟ لماذا؟

3 في التعبيرِ واللُّغةِ

1. بطلُ القصّةِ شابٌّ طموحٌ؛ حدِّدْ بعضَ العباراتِ والمواقفِ الّتي تُشيرُ إلى طموحِهِ.
2. أوضِحِ المَعنى المقصودَ في كلٍّ مِنَ الكناياتِ التّاليةِ:
- أحسَّ فارسٌ أنَّ دَهراً قدِ انقضَى بينَ هُبوطِ الطّائرةِ وانفتاحِ البابِ أمامَ المُسافرينَ.
- كانَ الجُزءُ الأكبرُ مِن وجهِ فارسٍ مختفياً خَلفَ نظّارتينِ سوداوينِ.
- تُحوِّلُهُ (الشّمسُ) إلى خزّانٍ مِنَ العَرقِ والدِّماءِ الفائرةِ.
3. حوِّلِ العبارةَ التّاليةَ إلى صيغةِ جمعِ المُذكّرِ، ثُمّ حوِّلْها إلى صيغةِ المفرَدِ المؤنّثِ فالجمعِ المؤنّثِ:
«ولكنّهُ، مثلَ شبابِ هذهِ الأيّامِ، كانَ ملحاحاً مُتسرِّعاً يطلبُ الوُصولَ مِن أقربِ الطُّرقِ، فلَمْ يُعطِ نفسَهُ أكثرَ مِن خمسِ سنواتٍ فرصةً».

14 نعمةُ اللّهِ

1 في الفَهمِ والتّحليلِ

1. لماذا كانَ مسعودٌ يُذكِّرُ الكاتبةَ بكتابِ الفيلسوفِ برتراند راسلْ «بلوغُ السّعادة»؟ وضِّحْ إجابتَكَ مُبيّناً العلاقةَ الّتي تجمعُ، في رأيِ الكاتبةِ، ذلكَ الفيلسوفَ بهذا الرّجلِ الأمّيِّ؟

2. لماذا دُهشت الكاتبةُ عندما علمَتْ أنّ زوجة مسعودٍ تصغُرُه بثلاثينَ سنةً؟ ولماذا لَم تُصدِّقْ أنّ عُمرَهُ سبعونَ؟
3. ما سِرُّ السّعادةِ الدّائمةِ الّتي يعيشُ فيها بَطلُ القصّةِ؟

② مِن وَحْيِ النّصّ

1. في رأيِكَ، ما الّذي يدفعُ بالفتاةِ إلى القبولِ بزوجٍ يكبُرُها بثلاثينَ سنةً؟
2. بلغَ عددُ أولادِ مسعودٍ ثلاثةَ عشرَ؛ فكمْ عددُكُم أنت وإخوتُكَ؟ وهَلْ تُحبُّ أن يكونَ لكَ إخوةٌ كثيرونَ؟ لماذا؟
3. هل لدَيْكَ مِن أسبابِ السّعادةِ ما تُضيفُه إلى الأسبابِ الّتي ذكرَها برتراندُ راسِلْ، ونقلَتْها عنْه الكاتبةُ؟ إذا ذكَرْتَ أسباباً جديدةً، فأقنِعْنا بصحّتِها.

③ في التّعبيرِ واللُّغةِ

1. تخيَّلْ حواراً يدورُ بينَ مسعودٍ وزوجتِهِ وأولادِهِ، بعدَ عودتِه إلى «عُشِّهِ الصّغيرِ حيثُ تَغمُرُه محبّةُ الزّوجةِ والأولادِ».
2. لخِّصْ في عشرةِ سطورٍ شخصيّةَ مسعودٍ، داخليّاً وخارجيّاً، في ضوءِ ما عَرفتَهُ عنْه في هٰذه القصّةِ.
3. فصِّلْ إعرابَ كلماتِ العبارةِ التّاليةِ، مفرداتٍ وجُملاً:
«تكادُ تظنُّ من كلامِه أنّهُ وُلِدَ وتحتَ إبطِه صُندوقُ مهنتِه».

① في الفَهمِ والتّحليلِ

1 ما العلاقةُ الّتي تَربطُ عائلةَ الدّكتورِ رجاءٍ، بصاحبِ القصرِ حليم بيْكٍ؟
2 لماذا عاد الدّكتورُ رجاءُ بالذّاكرةِ إلى أيّامِ الطُّفولةِ، فيما كانَ إلى مائدةِ البيْكِ؟
3 تُظهِرُ القصّةُ أنّ لقصرِ البيكِ وجهينِ مختلفين؛ بيّنْهما
4 ما إجازةُ المرورِ الّتي خوّلَتْ رجاءَ ابنَ العائلةِ المحرومةِ، أن يَستقبلَهُ أهلُ القصرِ بهذه الحفاوةِ؟

② مِن وَحْيِ النّصِّ

1 ماذا حرّكتْ فيكَ قصّةُ رجاءٍ الفقيرِ الّذي أصبحَ أشهرَ اختصاصيٍّ في أمراضِ القلبِ؟
2 هَل تحلُمُ أنتَ بأن تُصبحَ يوماً الأشهرَ في مجالِ اختصاصكَ؟ وكيفَ تُخطِّطُ لتحقيقِ هذهِ الشُّهرةِ؟
3 كثرةُ الأسئلةِ عندَ رجاءٍ أو غيرِهِ دليلٌ على حبِّ الاستطلاعِ، والرّغبةِ في المعرفةِ؛ هَل تُكثِرُ أنتَ مِنَ الأسئلةِ لأبيكَ أو لمعلّمِكَ؟ وعَمَّ تَسألُ عادةً؟ ولماذا؟
4 ماذا تعرفُ مِن الألقابِ الّتي أغدقتْها الدّولةُ العثمانيّةُ على من أيّدوها؟ عدِّدْ بعضَ هذه الألقابِ.

في التّعبيرِ واللّغة

1. أعدْ صياغة العبارات التّالية بلُغتِكَ وأُسلوبكَ، مُحافظاً على مضمونها:

«الأبُ يَحيكُ معَ صوتِهِ، يُمسِكُ بطَرَفِ الحبلِ ويحكي. ويُدحرِجُ الصُّوَرَ، فيلتقطُها خيالُ الصّغيرِ، ويَرفعُها إلى عينيه».

«ويكبرُ الطّفلُ، ويتقدّمُ بين أقرانه في المدرسة... ويجتازُ مرحلةَ العلمِ في مدرسةِ القريةِ بسُرعةٍ مُدهشةٍ، ويبدأُ تطلُّعهُ إلى الخارجِ».

2. حوِّلْ ما يلي إلى صيغةِ المؤنّث، ثُمَّ حوِّلْهُ إلى الجمعِ تذكيراً وتأنيثاً.

«وتمضي الأيّامُ، فيُنهي دراستَهُ، ويتخرّجُ في الجامعةِ حاملاً شهادةَ الطّبِّ... ثُمَّ يقومُ بسَفرةٍ إلى الخارجِ للتّخصُّصِ... ويُخلِّي ... وتسبِقُه شُهرتُه إلى وطنِه».

3. حدِّدْ محلَّ كلٍّ مِنَ الجُملِ الموضوعةِ بينَ قوسَينِ، في الإعراب:

كانَ كلُّ مَن حَولَهُ (يَضحكُ) ـ عاد (يُبصرُ) طفلاً (يرافقُ أباهُ) ـ أبوه (يمتطي ظهر) دابّته ـ راحتْ عيناهُ (تستقبلان) ـ عابساً (فاتَها القطارُ).

① في الفَهمِ والتّحليلِ

1 لماذا كانَ أبو ناصيفٍ يَشعُرُ بالسّعادةِ عندَما يَدعو له النّاسُ بأنْ يَرزُقَهُ اللهُ «عريساً»؟ وكيفَ تحكمُ عليهِ وعلى أمثالِهِ؟

2 تُحاولُ المؤلّفةُ أنْ تَنتقدَ مجتمعَها بشدّةٍ، فإلى أيّ ناحيةٍ وَجّهَتْ هَذا النّقدَ؟

3 كانتْ زوجةُ أبي ناصيفٍ تَعيشُ صِراعاً مريراً عندَ حَمْلِها: وضّحْ هذا الصّراعَ، وبيّنْ أسبابَهُ.

4 لماذا، في رأيكَ، اختارتْ جدّةُ الكاتبةِ اسمَ حياة للفتاةِ الّتي أنقذتْها؟ وهل من رابطٍ بينَ هَذا الاسمِ وعُنوانِ القصّةِ؟

5 كيفَ حاولتْ حياةُ أنْ تُحاوِرَ واقعَها، وتُثبتَ جدارتَها بالعيشِ الكريمِ؟

② مِن وَحْيِ النّصّ

1 أتؤيّدُ أنتَ المُساواةَ بينَ الرّجُلِ والمرأةِ، أم ترى للرّجلِ مُميّزاتٍ لا تَتوافرُ في المرأةِ؟ علّلْ إجابتَكَ.

2 هَل في عائلتِكُم من يُفضّلُ الصّبيانَ على البناتِ؟ وهل توافقُه على هَذا التّفضيلِ؟ ولماذا؟

3 أما زالَ الوالدانِ حتّى اليومِ لا يَعرفانِ جنسَ المولودِ قبلَ ولادتِهِ، فيتفاجآنِ به عندَ الولادةِ؟ لماذا؟

في التّعبيرِ واللُّغة

1 اشرحْ معاني التّعابيرِ التّالية، ثُمَّ استعملْ كُلّاً منها في جملةٍ مفيدةٍ: آخِرُ حبّاتِ العُنقودِ - ضَرَباتُ القَدَرِ العشواءُ - آلامُ المَخاضِ - جسدٌ ممتلئٌ فارعُ الطّولِ - كلُّ طلعةٍ تُقابلُها نزلةٌ - خَفَرُ الأُنوثةِ القرويّةِ.

2 حدِّد اسمَ كلٍّ من الأفعالِ النّاقصةِ والأحرُفِ المشبّهةِ بالأفعالِ، وخبرَهُ، مبيّناً نوعَ الخبرِ (مفردٌ، جُملةٌ اسميّةٌ أو فعليّةٌ، شبهُ جُملةٍ).

ظَلَّتْ حديثَ النّاسِ رَدَحاً مِنَ الزّمنِ - ولكنَّ الآخرينَ كانوا يتحمّلون نكَباتهم بصمتٍ - وبما أَنَّ طبيعةَ الجارِ لَم تَكُنْ تفسحُ مجالاً للمعاتبة - بعد ذلكَ صار الحمْلُ، بالنّسبة إلى الزّوجة «بُعبعاً» يُثيرُ الرُّعبَ - ولكنّ هذا لم يحدُثْ - لم تكُنْ بين فتياتِ القريةِ مَن تُضاهيها جمالَ شكلٍ.

3 أكملِ الجُملَ التّالية بما يُناسبُ المعنى:

- كان أبو ناصيفٍ يَتمنّى لَو يَرزُقُه اللهُ ولداً ذَكراً، ولكنَّ...
- لَم يَكُنْ أبو ناصيفٍ يَفرحُ إذا وُلِدَتْ له ابنةٌ، بَل....
- هَذه المرّةَ لَم أَعرِفْ أخبارَ القريةِ مِن جدّتي، لأنّها...
- لَقدْ صَحَّ في حياةَ القولُ المعروفُ: إنّها أُختُ الرِّجالِ، لأنّها....

1 في الفَهمِ والتّحليلِ

1. لماذا لم تر الجدّةُ الكاتبة في تعلُّمها إلّا حسنةً واحدةً هي تمكّنُها من كتابةِ الرّسائلِ؟
2. «وأعترفُ الآن، وبعد مُرور سنواتٍ طويلةٍ على تلك الخُطوات المُتعثّرة لقلمي، أعترفُ بفضلها على هذا القلم بالذّات»؛ ماذا تعني الكاتبةُ بهذا الكلام؟ وما كان فضلُ الجدّة على هذا القلم؟ وكيفَ أحسَّتْ به الكاتبةُ؟
3. حاولَتِ الجَدّةُ أن تُعوّضَ عَن نقصٍ في حياتِها، بوَساطةِ حفيدتِها، تَبَسَّطْ في شرحِ هذا الأمرِ.
4. هَل أقنعتْكَ الأسبابُ الّتي برّرتْ بها خالةُ الكاتبة عدمَ عودتها قبلَ وفاةِ أُمّها؟ لماذا؟
5. ما شعورُكَ نحوَ الابنةِ المُغتربةِ؟

2 مِن وَحْيِ النَّصّ

1. لَو كُنتَ مكانَ الخالةِ المُغتربة، وعَشَراتُ الرّسائلِ تَرِدُكَ مِن أُمّكَ أَو أَبيكَ، يطلُبانِ فيها عَودتَكَ ولَو لأيّام، ليُمتّعا عيونَهما برؤيتِكَ، فماذا كُنتَ فعلْتَ؟ ولماذا؟
2. للاغترابِ حَسَناتٌ وسَيّئاتٌ؛ ما هي، في رأيِكَ أَبرزُ حَسَناتِهِ وأبرزُ سيّئاتِهِ؟
3. حاوِلْ أن تتقصّى كم تستغرقُ العودةُ بالطّائرةِ إلى لبنان، من كلٍّ مِن بُلدانِ الاغترابِ التّاليةِ:

الولاياتِ المتّحدة الأميركيّةِ - كندا - البرازيل - أوستراليا - فنزويلّا - فرنسا - بريطانيا - المملكة العربيّة السعوديّة - الإمارات العربيّة - نيجيريا - أفريقيا الجنوبيّة.

3 في التعبيرِ واللُّغةِ

1 ضَعْ نفسَكَ مكانَ الكاتبةِ، واكتُبْ للخالةِ المُغتربةِ إحدى الرّسائلِ الّتي كانَتْ تُمليها عليْها الجدّةُ.

2 ضَعْ نفسَكَ مكانَ الكاتبةِ مرّةً أُخرى، وحرّرْ رسالةً جوابيّةً للخالةِ، عَنْ رسالتِها في آخِرِ القصّةِ.

3 حوِّلْ إلى صيغةِ الجمعِ العباراتِ التّالية، مُغيّراً ما يلزمُ تغييرُه: أَجلسَتْني كما كانَتْ تَفعلُ أيّامَ الطُّفولة، وراحَتْ تُملي عليَّ رسالةً مُستعجلةً. وبدتْ لعَيني أشبهَ بمُسافرٍ يَخشى أن يسبقَهُ القطارُ، فيُسارعُ إلى إيداعِ مَن حولَهُ وصاياهُ المهمّةَ.

18 فَرحانُ

1 في الفَهمِ والتّحليلِ

1 ماذا عَنَتِ الكاتبةُ بقولِها عن فَرحانَ: «ويَتعذّبُ الصّغيرُ بينَ وصيّةِ أمِّهِ ومتطلّباتِ العالمِ الجديدِ»؟ وَضِّحْ إجابتَكَ.

2 ما العبءُ الجديدُ الّذي حملتْهُ إليْه سنواتُ المُراهقةِ؟

3 عدّةُ أسبابٍ تجمّعَتْ لتخلقَ من فرحانَ هذه الشّخصيّةَ الطّريفةَ؛ أُذكُرْ هَذه الأسبابَ.

4. لماذا كانَ خبرُ زواجِ فَرحانَ طُرفةً يَتندّرُ بها رُفقاؤه طوالَ الصّيفِ؟

5. ما الزّاويةُ الاجتماعيّةُ الّتي توجّهَتْ إليْها الكاتبةُ بالنّقدِ؟

② مِن وَحْيِ النّصّ

1. لَو كُنتَ مِن رُفقاءِ فَرحانَ، فهَل كُنتَ تَسخَرُ منهُ كما كانَ الآخرونَ يَفعلونَ؟ لماذا؟
2. إذا طَلَبْتَ وظيفةً في الدّولةِ، أَتَعتمدُ على كفاءَتِكَ وشهاداتِكَ، أم تلجأُ إلى وساطةِ أحدِ النّافذين؟ لماذا؟
3. هل يجوزُ أن يتضاربَ الرّفقاءُ لأيِّ سببٍ، فيجرحَ بعضُهُم بعضاً؟ لماذا؟
4. في أيِّ عُمرٍ كانَ الأولادُ، أيّامَ فرحانَ، يَدخلونَ إلى المدرسةِ؟ وفي أيِّ عُمرٍ يَدخلونَ اليوم؟ وأيُّ العمريْنِ أفضلُ؟ ولماذا؟

③ في التّعبيرِ واللُّغةِ

1. وردتْ في القصّةِ العباراتُ العامّيّةُ التّاليةُ. أعِدْ صياغتَها بالفُصحى:

يِكْسُرْ إيدْ الّلي ضربَكْ... وَيْنْ هو إبنِ الـ... تُقْبُرْ إمَّكْ. تعا لقِّنّي

ضُبّوا ابْنْكُم... حاجْ مْسَلَّطْ عالصّبي... اصْبُرو حتّى يْصيرْ رْجالْ يفرْجيكُم

- الأولادْ بيسَوّدوا اللّوحْ يا سِتْ كاترينا... رَحْ إقْصُفْ عُمرو لَهالعفريتْ

كَمْ مرّة قُلْتِلّكْ ما تِلعبْ معْهُم... ولادْ السّتّينْ... عامْلينَكْ مسخرة.

- بدّكْ تْكونْ أشطرْ مِن كِلْ الأولادْ، فاهِمْ؟

- فَرحانْ قومْ عاللَّوْحْ.
- فَرحانْ صارْ إلو لْسانْ؟!! جلِّسْ لْسانَكْ قَبلْ ما تِحكي معْ بَناتْ النّاسْ.
- وْلادْ فَرحانْ رَحْ يِمَضّو فِرصِةْ الصَّيفْ عِنْدي.

2. علِّلْ كتابةَ الهمزةِ في كلٍّ مِنَ الكلماتِ التّاليةِ:
يَأوي - المُؤَخَّرةُ - فَيْءٌ - يَبدَؤونَ - حذاءَهُ - يَجيئُه - الرُّفقاءُ - شَيْئاً - حائِراً - السُّؤالُ - يَجرُؤونَ - لِيَبدَأَ.

9 لَـو

① في الفَهمِ والتّحليلِ

1. عَلامَ تَشعرُ الكاتبةُ بالنّدمِ؟ وكيفَ بَرَّرَتْ عَدمَ وَداعِ والدتِها بحرارةٍ؟
2. هَل يُمكِنُكَ أن تُقدِّرَ كيفَ ماتَتْ أمُّ الكاتبةِ؟ عَلامَ استنَدْتَ في تقديرِكَ؟
3. كانَتِ الابنةُ تَعيشُ في حالةِ قَلَقٍ حَتّى قَبلَ أن تَتبلَّغَ الخبرَ المُحزِنَ. ماذا تُسَمّي هَذا الأمرَ؟

② مِن وَحْيِ النّصِّ

1. «إرادةُ اللهِ على الرّأسِ والعَينِ»؛ مَن يَقولُ هَذا الكلامَ عادةً؟ وهَل أنتَ مِمَّنْ يُردّدونَهُ ويُؤمنونَ بمضمونِهِ؟
2. هَل شَعرْتَ مرّةً بالنّدمِ على عَدمِ قيامِكَ بعملٍ كانَ عليكَ أن تقومَ بِه، أو على عملٍ قُمتَ به وكانَتْ نتيجتُه مُضرّةً؟ أخبِرْنا مُفصِّلاً ومُعلِّلاً.

3. وهَل عَجزْتَ مرّةً عَنِ النّومِ طَوالَ اللّيلِ؟ أُسرُدْ لنا ما حصَلَ، وما أسبابُ عَجْزِكَ عَنِ النّومِ.

3 في التّعبيرِ واللُّغةِ

1. صِفْ لنا بلُغتِكَ وأسلوبِكَ، حالةَ الكاتبةِ الّتي وَصفَتْها في المَقطعِ التّالي: «نَهضْتُ مِن الفراشِ... وأَعودُ للبحثِ عَنهُما في أَرجاءِ الغُرفةِ».
2. «لَو» حَرفٌ له معانٍ عديدةٌ؛ حاوِلْ تحديدَ معنى «لَو» في كلٍّ مِنَ الأَمثلةِ التّاليةِ:
   - لَو عَرفْتُ أنّها تنوي الرّحيلَ باكراً، لكُنتُ ودَّعْتُها.
   - تمنّيْتُ لَو أعودُ وأَلْقاها.
   - لَو تَزورُني فأُكرِمَكَ.
   - لَيتَني بَقيتُ معَها ولَو لِلحظاتٍ.

10 كلامٌ

1 في الفَهمِ والتّحليلِ

1. لماذا كانَ المُستمعونَ يُصغونَ إلى العمّ أَسعدَ بشَوقٍ ويَطلبونَ المَزيدَ مِن قِصصِه، على رُغمِ معرفتِهم بأَنّهُ يُبالغُ في الأحداثِ أَو يَخترعُها اختراعاً.
2. صِفِ التّحوّلَ الّذي طَرأَ على أُسلوبِ العمّ أَسعدَ في سردِ الحكاياتِ والأقاصيصِ.
3. بَطلُ القصّةِ مِن ضَحايا التّقدُّمِ الحضاريّ؛ كَيفَ؟ ولماذا؟
4. كَيفَ تُفسّرُ المَقطَعَ الأخيرَ مِن القصّةِ؟

② مِن وَحْيِ النّصّ

1. تَحدّثَتِ الكاتبةُ عَنِ انتصاراتِ العمّ أسعدَ الدّونكيشوتيّةِ، نسبةً إلى دون كيشوت محاربِ طواحينِ الهواءِ؛ مَن هو دون كيشوت هذا؟ وما قصّتُه؟ ومَن مؤلّفُها؟
2. هَل تُحبُّ الأشخاصَ الّذينَ يُبالغونَ في تَضخيمِ مغامراتِهم، مِن أمثالِ العمّ أسعدَ؟ لماذا؟
3. هَل تُقاربُ شخصيّتُكَ شخصيّةَ العمّ أسعدَ، أم تَختلفُ عَنها؟ ارسُمْ لنا شخصيّتَكَ بصدقٍ.
4. هَل صحيحٌ أنَّ شكلَ الإنسانِ يؤثّرُ في مَسلَكِهِ وتصرُّفاتِهِ؟ لماذا؟ أقنِعْنا بالحُجّةِ والبُرهانِ.

③ في التّعبيرِ واللُّغةِ

1. اسرُدْ لنا، على طريقةِ العمّ أسعدَ، مغامرةً قُمتَ بها، محاولاً تشويقَنا إلى قراءتِها على رُغمِ المبالَغةِ.
2. حدِّدْ نَوعَ كلٍّ مِنَ الصُّورِ البيانيّةِ التّاليةِ، واشرَحْها مبيّناً أركانَها:
   - الكونُ، بالنّسبةِ إلى العمّ أسعدَ كُرةٌ صغيرةٌ.
   - تُديرُ الدّفّةَ لمَصلحتِهِ.
   - يأسُرُ ألبابَ السّامعينَ.
   - هَذه المِهنةُ حقلٌ خَصبٌ لرِحلاتِ الخيالِ.
   - السّطْوُ على خَزّانِ الذّاكرةِ.
   - يَجترُّ ما خَبّأهُ مِن سوالِفِ الأيّامِ الغابرةِ.
3. فصِّلْ إعرابَ كلماتِ العبارةِ التّاليةِ، مُفرداتٍ وجُملاً وتأويلاً: لَم يَرضَ أنْ يختارَ مِهنةً أُخرى تُنزِلُه إلى صفوفِ مُواطنيهِ مِنَ الفلّاحينَ.

محتوى الكتابْ